

البراهين

صنع الله إبراهيم

على سبيل التقديم

سألنى أستاذنا الكبير يحيى حقى، عندما التقيت به مؤخراً في إحدى المناسبات، عما إذا كنت أذكر النقد الذى وجهه إلى روايتى الأولى "تلك الراححة" عقب نشرها أول مرة فى فبراير 1966. وعندما أجبت بالإيجاب، سألنى عن رأى الآن، بعد مرور قرابة العقدين، فى نقده، وفى روايتى عموماً. فى تلك اللحظة كنت قد أوشكت أن أنسى كثيراً من تفاصيل الرواية. فقد مرت سنوات طويلة منذ قرأتها لآخر مرة. فليس من عادتى أن أعود إلى ما سبقته فى كتابته. فمثل هذه القراءة تثير مللى، إن لم تكن مصدراً للشعور بالإحباط.

أما النقد الذى وجهه الأستاذ يحيى حقى للرواية، فلم أنسه أبداً! كنت قد دفعت بالمخطوطة إلى مطبعة بدائية صغيرة فى حى الظاهر، فى فترة نادرة من تاريخ مصر الحديث، ألغيت فيها الأحكام العرفية. ولم يعد الكتاب يتطلب موافقة الرقابة قبل دخول المطبعة. رسمياً على الأقل! فقد احتفظ الرقيب بمكتبه ووظيفته كما كان الأمر فى السابق. وكل ما حدث من تغيير هو أن مكتبه أصبح بلا لافتة. وأن مصادر الكتب لم تعد تتم قبل الطبع وإنما بعده.

صنع الله إبراهيم

تلك الرائحة

وقصص أخرى

دار الهدى للنشر والتوزيع

الكتاب: تلك الرائحة

وقصص أخرى

المؤلف: صنع الله إبراهيم

الطبعة: الثالثة

تصميم الغلاف: شهاب الدين حسنى

الناشر: دار الهدى للنشر والتوزيع

الطباعة: القبس للطباعة وقصم الألوان

رقم الإيداع: 2003/18829

الترقيم الدولي: 9-59-5822-977

جميع الحقوق محفوظة للناشر



المنيا - 5 ميدان الساعة

ت 0127899112 - 086/377034

فاكس 086/377034

مكتبة الجامعة الأردنية
١٢ تموز ٢٠٠٤
رقم التسلسل ٥٩٩٢٠٤
رقم التصنيف

٩
صنع
٢٠٠٣

مقدمة الطبعة الثالثة

صدرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة
سنة 1986 بالقاهرة والدار البيضاء وتلتها الطبعة
الثانية بالقاهرة سنة 1993. وتضم هاتين الطبعتين،
كما هو شأن الطبعة الحالية، النص الكامل لرواية "تلك الراححة".
وكانت طبعتها الأولى قد صدرت - وصودرت - في القاهرة منذ سبع
وثلاثين سنة، سنة 1966. وتلتها طبعة غير كاملة في 1969 في القاهرة وأخرى
غير كاملة أيضاً في مجلة "شعر" البيروتية ثم أعيد نشر الطبعة الناقصة سنة 1971
في القاهرة ولم تنشر الطبعة الكاملة إلا سنة 1986 في الخرطوم. وفي نفس السنة
نشرت كاملة أيضاً في القاهرة والدار البيضاء، في مجلد يضم القصص القصيرة.
وقد سبق أن أشرت في تقديم تلك الطبعة إلى عزوفى عن قراءة نصوصى
السابقة. وهو ما أفعله مرغماً عند مراجعة طبعاتها الجديدة. هكذا وجدتنى مضطراً
إلى قراءة هذه المجموعة من جديد. وأثارت هذه القراءة شجون عدة تتعلق برحلتى

الطويلة في الكتابة والحياة كما واجهتني مرة أخرى بأخطائي اللغوية التي لم أكن أعياً بها في مستهل عملي ثم حرصت على تلافيتها بعد ذلك وما زلت أحاول!

والواقع أن الفترة التي بدأت فيها الكتابة كانت تتميز بإهمال عام من الكتاب لقواعد اللغة والترقيم التي اعتبروها - وخاصة في الكتابات الصحفية - شيئاً ثانوياً. ولعبت طرق تدريس اللغة دوراً هاماً في ذلك إذ اعتمدت الحفظ أساساً لها ولم تعبأ بمخاطبة عقول التلاميذ من خلال بسط "منطق" القواعد والتخلص من متحجراتها. وقد نجحت المدرسة في إثارة نفوري من القواعد وأقامت حاجزاً نفسياً منيعاً بيني وبينها.

والقارئ لمقدمة "يوسف إدريس" التي حرصت على نشرها كما هي سيلحظ على الفور عدم مبالاته بقواعد النحو والصرف. واذكر أني استفسرت من أحد الكتاب الصحفيين عن رأيه في لغة إحدى قصصى الأولى - "الثعبان" - من ناحية القواعد النحوية، فأشاح بيده في لا مبالاة قائلاً إنها مسألة تافهة يمكن علاجها "بواحد أزهري مقابل شلن!".

لكن الأمر في "تلك الراححة" كان أكبر من مجرد النفور من القواعد والاستهتار بها فقد كان - كما أشار يوسف إدريس في مقدمته - تعبيراً عن حالة التمرد التي سيطرت على العمل كله. وقد تغيرت نظرتي للأمر مع الزمن بفعل عوامل عدة منها بروز كتاب مثل "أدوار الخرائط" جعلوا من اللغة أساساً لعملهم. وتواكب ذلك مع ازدياد الاهتمام العام بسلامة اللغة نتيجة التقارب مع مراكز تحرص عليها مثل دمشق وبغداد ونتيجة أيضاً لانتقال "المركز الصحفى" من القاهرة إلى بيروت ثم الخليج، وربما أيضاً كرد فعل للهجوم الاستعماري الضارى على المنطقة وثقافتها.



أثارت القراءة الراهنة لهذا المجموعة أيضاً فرصة ملاحظة بذور الظاهرة التي ميزت عملى وهى تلك الخاصة بالتناص أو تضمين الوثائق، والتفاعل مع أشكال أخرى من الإبداع الفنى. ففى "تلك الراححة" توجد وثيقة فريدة هى الترجمة العربية لقصيدة كتبها بالإنجليزية المرحوم "شهدى عطية" (1913-1960)، قبل شهر من اعتقاله الأخير سنة 1959 الذى فقد حياته خلاله تحت وطأة التعذيب. وما زلت أحتفظ بأصل القصيدة بخط يده.

وذكرتني القصص القصيرة أيضاً بالتأثيرات التي تعرضت لها فى بداية عملى. ولا شك أن القارئ المدقق سيلمس أثر رواية "الطاعون" لكامى فى قصة "الثعبان"، وأثر أسلوب "جورج سيمنون" المبهر ببساطته وسخريته الخفية فى قصة "ثلاثة أسرة"، و"هيمنجواى" فى قصص الطفولة. وأظن أن استخدامى لتقنية "الفلش باك" فى "تلك الراححة"، بلغة شاعرية تعارض لغة السرد الرئيسى، قد جرى بتأثر من رواية "ثلوج كليمنجارو"، وقد كان تأثيراً لا واعياً، إذ كنت من الغرور والاعتزاز بالنفس لأربأ بنفسى عن أى تقليد متقصد لكاتب آخر.



استدعت القراءة الراهنة أيضاً المشاكل التي جلبتها لى "تلك الراححة" والتي رويت طرفاً منها فى تقديم الطبعة السابقة.

ولكن المشكلة التي مازالت تلاحقنى، ونتيجة أيضاً لأعمالى الأخرى، هى ميل القراء إلى اعتبار ما أكتبه واقعاً مؤكداً حدث لى. السبب فى ذلك بالطبع هو أنى أفضل استخدام ضمير المتكلم لما يسبب لى من راحة (ولأنى أيضاً أميل إلى قراءة الروايات التي تستخدمه) وأنى أستعين ببعض المواقف والخبرات التي مررت بها بالفعل، كما أن أغلب أعمالى تشير عادة إلى شخصيات وأحداث حقيقية. لكن ما

فعبور العقود نشأ جيل منهم وصل إلى الجامعة. ومن سوء حظي أن البعض منهم أغرم بالقراءة وقراءة الأدب بالذات. ثم أن العصر صار غير العصر. فما كان يبدو مقبولاً منذ ثلاثة عقود صار الآن رجساً من عمل الشيطان في ظل الظلامية التي أسدلت أستارها على البلاد. ووقعت إحدى طبعات "تلك الرائحة" في أيدي بعضهم فحملوها إلى الآباء والأجداد متسائلين وربما ساخطين.

وجاء اليوم الذي توفيت فيه إحدى قريباتي. علمت بالخبر في الصباح وبدأت استعد للقيام بواجب العزاء. وإذا بزوجتي تحمل إلى النعى المنشور في جريدة الأهرام قائلة أنه لا يوجد ما يدعو للخروج. وعرفت السبب عندما قرأت النعى الذي يضم أسماء الأقارب إذ وجدت مكان أسمى فارغاً مما يوحي بأن أحداً تذكر بعد إعداده للنشر ما "ارتكبته من جرائم"، وتمكن من إزالة أسمى في اللحظة الأخيرة!!

ربما أمكن اعتبار كل ذلك بعضاً من متاعب المهنة الضرورية. وربما أمكن اعتبارها مؤشراً على نجاحي في إقناع القارئ بالأكذوبة التي هي الرواية. لكنني ما زلت أتمنى أن يفصل القارئ بين شخصي والرواية، فهو كاذب كبير، حتى لو صدق!!

ص. ١

أكتوبر 2003

أكتبه لا يمكن اعتباره من قبيل السيرة الذاتية وبعبارة أخرى، فإذا كنت أستعين ببعض الخبرات الشخصية فإنها تتعرض لكثير من التحريف والتغيير طبقاً لأهداف العمل. وقد جلب لي سوء الفهم هذا كثيراً من المشاكل والمواقف المحرجة. فغالباً ما يسألني أحد القراء عما إذا كنت أنا شخصياً "شرف" الذي أغتصب في السجن، وعن مصير البنت الروسية التي نمت معها في أسوان. وقطع البعض بأن "لياً" بطله "بيروت بيروت" هي فلانة، وأن "ذات" هي زوجتي أو أختي. ووصلت المسألة إلى ذروة الخطر في حالة "وردة" التي تدور أحداثها في سلطنة عُمان. فقد اتصل بي أحد مواطنيها محتدماً ومهدداً قائلاً بالحرف: "كيف أسمح لنفسى أن افضح شرف "حرمة"؟ وهددني بعواقب وخيمة إن لم أصحح الأمر. وبعثاً حاولت أن أبين له أنني مؤلف. وأن شخصيات الرواية بما فيهم الراوية ذاته لا وجود لها في الحقيقة حتى لو تشابهت مع شخصيات واقعية، إلا في حالات محدودة تجري الإشارة إليها.

© © ©

جلبت لي "تلك الرائحة" أيضاً مشاكل عائلية عديدة، ففيها يتحدث الراوية عن أخ وأخت وعم وأقارب سارداً تفاصيل حميمة عنهم، من شأن بعضها أن يصدم القارئ. لم يثر ذلك شيئاً عند نشرها في المرة الأولى. فبعض أقاربي الذين تنطبق عليهم هذه الأوصاف كفوا عن ممارسة القراءة أو انتهت علاقتهم بفن الرواية عند "يوسف السباعي" و "إحسان عبد القدوس". ومن قرأها منهم صدفة - من مجابلي أو من الجيل الأكبر - لم يأخذ عملي على محمل الجد. وأعتبره في الغالب نزوة من نزواتي التي اشتهرت بها وقادتني في السابق إلى السجن.

لكن الأحفاد كان لهم شأن آخر.

على سبيل التقديم

سألنى أستاذنا الكبير يحيى حقى، عندما التقيت به مؤخراً

فى إحدى المناسبات، عما إذا كنت أذكر النقد الذى وجهه إلى روايتى

الأولى "تلك الرائحة" عقب نشرها أول مرة فى فبراير 1966. وعندما

أجبت بالإيجاب، سألنى عن رأى الآن، بعد مرور قرابة العشرين، فى نقده، وفى روايتى عموماً.

فى تلك اللحظة كنت قد أوشكت أن أنسى كثيراً من تفاصيل الرواية. فقد مرت

سنوات طويلة منذ قرأتها لآخر مرة. فليس من عادتى أن أعود إلى ما سبقت لى كتابته. فمثل

هذه القراءة تثير مللى، إن لم تكن مصدراً للشعور بالإحباط.

أما النقد الذى وجهه الأستاذ يحيى حقى للرواية، فلم أنسه أبداً!

كنت قد دفعت بالمخطوطة إلى مطبعة بدائية صغيرة فى حى الظاهر، فى فترة

نادرة من تاريخ مصر الحديث، ألغيت فيها الأحكام العرفية. ولم يعد الكتاب يتطلب

موافقة الرقابة قبل دخول المطبعة. رسمياً على الأقل! فقد احتفظ الرقيب بمكتبه ووظيفته

كما كان الأمر فى السابق. وكل ما حدث من تغيير هو أن مكتبه أصبح بلا لافتة. وأن مصادرة

الكتب لم تعد تتم قبل الطبع وإنما بعده.

وهذا ما حدث مع كتابي. فلم تكذب طبعته تنتهي حتى صدر الأمر بمصادرته. ولا أذكر إذا كنت قد استدعيت إلى مكتب رئيس الرقابة أو أنى ذهبت بنفسى شاكياً. المهم أنى قابلت المرحوم طلعت خالد، أحد معاونى عبد القادر حاتم المخلصين، وكان قد جمع لديه بعض كبار موظفى مصلحة الاستعلامات ليتسلوا بالفرجة على. وبسط أمامه نسخة من الرواية المصادرة، وقد ظهر أثر القلم الأحمر على هوامش أغلب صفحاتها. ثم سألتى باستهزاء: لماذا رفض البطل أن ينام مع المومس التى أحضرها صديقه ... هل هو "مرخى"؟

لم أعن كثيراً بمجادلته. وقد كنت تمكنت من استخلاص عدد من النسخ المصادرة، فقممت بتوزيعها على أصدقائى ومعارفى من الكتاب والصحفيين. وحاولت أن أوسط البعض منهم من نوى النفوذ فى الإفراج عن الرواية. فذهبت مع المرحوم الأستاذ زكى مراد إلى الأستاذ أحمد حمروش، الذى كان يرأس تحرير مجلة "روزاليوسف" فى ذلك الوقت. ورحب الرجل بى بحرارة، وأرانى بروفة العدد الجديد من المجلة وبه تعليق صغير له عن الرواية تحت عنوان "لغة العصر". وعندما أبلغته بنبأ المصادرة ظهرت عليه المباغطة، ورفع سماعة التليفون واتصل بقريبه الأستاذ حمدي حافظ فى مصلحة الاستعلامات، فاستمع إليه برهة، ودون أن يعيد السماعة إلى مكانها اتصل بمطبعة المجلة وطلب شطب مقاله عن الرواية.

لكن أغلب الكتاب والصحفيين لم يصلهم نبأ المصادرة فى الوقت المناسب، فظهرت تعليقات عدة فى الصحف والمجلات، بينما كان الكتاب يرقد فى مخازن وزارة الداخلية. وكان الأستاذ يحيى حقى من الذين أهديتهم إحدى النسخ. وكنت قد تعرفت إليه قبل شهر، عقب خروجى من السجن فى منتصف 1964. فذهبت إليه فى مجلة "المجلة" التى كان يرأس تحريرها، فاتحاً أبوابها أمام كافة الكتاب والجدد منهم بوجه خاص، تاركاً لهم المكتب الخشبي الثمين الذى يتصدر غرفته، مكتفياً بمقعد جلدى مريح إلى جانبه. وفى أول لقاء معه حملت إليه عرضاً لأحدث كتب الناقد الإنجليزي ستيفن سبندر. وجلست أقرأ

المقال عليه وهو ينصت باهتمام، ويدرسنى بعينيه الذكيتين، مصححاً لى فى رفق ما ارتكبته من أخطاء فادحة فى النطق. وعندما فرغت من القراءة أعلن قبوله للمقال. وكان أول شئ ينشر لى بعد خروجى من السجن. وحصلت من ورائه على عشرة جنيهاً كاملة تكلفت بنفقاتى لمدة شهر.

ذهبت إليه بنسخة من "تلك الراححة"، فتناولها منى بحفاوة بالغة وبعد أن تبين العنوان قال مجاملاً، إن الغرفة أوشكت أن تعبق بالمعبر الزكى الذى يفوح منها!

ولم تمض أيام حتى صحح الأستاذ الكبير غلطته بمقال عنيف فى عموده الأسبوعى بجريدة "المساء" قال فيه:

"لازلت أتحسر على هذه الرواية القصيرة التى ذاع صيتها أخيراً فى الأوساط الأدبية، وكانت جديرة بأن تعد من خيرة إنتاجنا لولا أن مؤلفها زل بحماقة وانحطاط فى الذوق. فلم يكتف بأن يقدم إلينا البطل وهو منشغل بجلد عميرة (لو اقتصر الأمر على هذا لهان)، لكنه مضى فوصف لنا أيضاً عودته لمكانه بعد يوم ورؤيته لأثر المنى الملقى على الأرض. تقززت نفسى من هذا الوصف الفزيولوجى تقززاً شديداً لم يبق لى ذرة من القدرة على تذوق القصة رغم براعتها. إننى لا أهاجم أخلاقياتهما، بل غلظة إحساسها وفجائته وعاميته. هذا هو القبح الذى ينبغى محاشاته، وتجنيب القارئ تجرع قبحه".

كان كاتبنا الكبير يسألنى إذن عن موقفى مما أسماه فى ذلك المقال بالتعبير الفزيولوجى. لكن ذهنى انصرف أثناء حديثى معه إلى تجربتى كلها. فأجبت به بأنى أشعر كما لو أنى بدأت الآن فقط فى تعلم الكتابة. فكل كتاب جديد لى يكشف لى عن جانب كنت أجهله من هذا الفن، يزيد من إدراكى لحدود إمكانياتى ولنقاط الضعف والعجز لدى، كما يضاعف من تقديرى لعتاولة الكتاب الذين يقتحمون الورق مسلحين بأدوات عدة، قبضوا على ناصيتها بإحكام شديد. ولم يكن هذا شعورى عندما بدأت أولى خطواتى، وهو ما اعتبره أمراً طبيعياً.

كنت - عندما كتبت "تلك الرائحة" - خارجاً لتوى من السجن، خاضعاً للرقابة القضائية التي تستلزم التواجد في المنزل من غروب الشمس حتى شروقها. وكنت أفضى بقية اليوم في التعرف على عالم ابتعدت عنه أكثر من خمس سنوات. وما أن آوى إلى حجرتي، حتى أجد نفسي مدفوعاً لأن أسجل بلمسات سريعة ما مر بي من أحداث ومشاهدات كانت تهزني بعنف وتبدو لي عجائبية. ثم أزيح هذه اليوميات جانباً وأعود إلى رواية، بدأتها في السجن، عن عالم الطفولة. وكنت قد خطت لها أن تتألف من عدة قصص مستقلة، تجمع بينها الشخصيات الرئيسية والموضوع العام. وكتبت منها عدة فصول نجحت في تهريبها إلى خارج السجن بفضل الصديق حسين عبد ربه، الذي حملها معه عند الإفراج عنه. (تضم المجموعة الحالية اثنتين من هذه القصص هما "أرسين لوبيين" و"أغانى المساء").

كنت أعود إلى الرواية فأجدني عازفاً عن المضى في كتابتها. فقد ضاع الوهج الذي لازم العمل فيها بين جدران السجن، واستولى الواقع الجديد على كل مشاعري.

ومن جديد برز السؤال المعهود: ماذا أكتب وكيف أكتب؟

أقول من جديد لأنه طالما لاحقني في السجن، منذ اللحظة التي قررت فيها أن أهب حياتي لهذا الفن. وأحياناً ما كنت أضرب عرض الحائط بالشق الأول من السؤال، متحدياً في سذاجة الشباب وحماسه، الصياغة التي ألهمت خيالنا في الخمسينات للعلاقة بين صورة العمل الفني ومضمونه، والتي بسطها الأستاذان محمود العالم وعبد العظيم أنيس في مقالاتهما الشهيرة. فقد كان التمرد هو طابع الفترة.

كانت السنوات الأولى من الستينات بالغة الخصب، في السياسة والفن والحياة. كانت فترة الصعود لطبقة متوسطة فتيية في مصر وبلدان العالم الثالث أمكنها أن تكييل ضربات قاصمة للاستعمار القديم المتهاوى، مستفيدة من توازن عالمي ملائم للقوى، وأن تصوغ حلماً للعدالة الاجتماعية لم يقدر لها أن تتمكن من تحقيقه. وكانت الحركة الاشتراكية قد

استيقظت على مساوى عبادة الفرد وبدا الطريق أمامها مههداً لاستخلاص النتائج الضرورية من ذلك. وكان الإنسان قد صعد إلى القمر، ودخل السلوك الجنسي إلى العمل لتتكشف أكثر الحقائق إثارة، من قبيل عدد مرات الأورجازم لدى المرأة الطبيعية والتي يمكن أن تصل إلى خمسين أورجازماً في الليلة الواحدة مقابل اثنين أو ثلاثة في المتوسط للذكر المسكين.

ومن وراء أسوار سجن الواحات الخارجة كنا - أنا وأصدقائي كمال القلش ورؤوف مسعد وعبد الحكيم قاسم - نتابع في حماس الشعراء السوفييت - الشبابين يوفتوشنكو وفوزنيسنسكى والعجوز تفارودوفسكى - وهم يفجرون الأبنية العتيقة، بقدر ما كنا نتابع تجارب الكتابة التلقائية، وفنون الضوء والحركة في أمريكا، وموجة "الرواية الجديدة" في فرنسا. وكانت المجالات القاهرية تحفل بالإشارة إلى شتى التجارب الأدبية الجديدة في العالم. وراحت المعارضة اليمينية المقنعة للنظام الناصري - وهى التي كانت تسيطر بالفعل على كافة منافذ النشر والإعلام فى البلاد - تروج فى دهاء لأعمال بيكيت ويونسكو ودورينمات.

كان التمرد إذن هو وقود المرحلة، والتجربة هو شعارها. وأعطى نجيب محفوظ ظهره لكتابته البلازمية، ليخوض فى مغامرات مثيرة، قفز فيها بالفن الروائى العربى قرناً بأكمله. وبرزت أسماء جديدة مثل إدوار الخراط وغالب هلسا وبهاء طاهر وسليمان فياض وإبراهيم أصلان ويحى الطاهر عبد الله وغيرهم. وخيل إلى أنى وجدت الطريق عندما وقعت على هيمنجواى من خلال كتابين وجدا طريقهما إلى سجن الواحات الخارجة: الأول لكارلوس بيكر، والثانى يضم عدة دراسات أهمها واحدة لناقد سوفيتى قديم، غاب عنى اسمه، عنيت بتحليل أدوات الكاتب الأمريكى الكبير. وقد آمنت على الفور بهذه الأدوات - ومازلت أعتمد بعضها - وأهمها الاقتصاد والتعبير المشكوم. وبدا "لجيل الثلج العائم" بريق خاص فى مواجهة الترهل التقليدى فى أسلوب التعبير العربى. وتحت تأثير هيمنجواى

بدأت أعمل فى رواية الطفولة التى لم يقدر لها أن تكتمل.

فسرعان ما كنت فى الحجره المفروشه التى استأجرتها فى حى "مصر الجديدة" بعد الإفراج عنى، أقلب مسوداتها فى ملاله وأنا أتساءل عن جدوى كتابه لا تتعرض للصراع الضارى مع الاستعمار، لمحاولات بناء الاشتراكية، وللتناقضات الملتبسه بكل ذلك: الرعب والتعذيب والسجن والموت والشجن الشخصى؟

وذات ليلة لن أنساها، ألقيت نظرة على اليوميات التلغرافية التى كنت أسجلها كل ليلة بعد انصراف الشرطى. وكان قد تجمع منها عدد قليل ربما ستة عشر يوماً على ما أذكر ... قرأتها كلها مرة واحدة، فإذا بى أرتجف من الانفعال.

كان ثمة تيار خفى فى ذلك الأسلوب التلغرافى الذى لا يتوقف ليعتم، ولا يعنى بانتقاء المترادفات أو سلامة اللغة أو مداراة القبح الذى يصدم النفوس الحساسة. كان ثمة "جمال" فى جملة ركيكة مثل "وقال الكاتب إن موبسان قال إن الفنان يجب أن يخلق عالماً أكثر جمالاً وبساطة من عالمنا". وكان ثمة جمال فى فعل قبيل إطلاق غازات المعدة فى صالون برجوازى.

ألا يتطلب الأمر قليلاً من القبح للتعبير عن القبح المتمثل فى سلوك فزيولوجى من قبيل ضرب شخص أعزل حتى الموت ووضع منفاخ فى شرجه، وسلك كهربائى فى فتحته التناسلية؟ وكل ذلك لأنه عبر عن رأى مخالف أو دافع عن حريته أو هويته الوطنية؟ ولماذا يتعين علينا عندما نكتب ألا نتحدث إلا عن جمال الزهور وروعة عبقها، بينما الخراء يملأ الشوارع ومياه الصرف الملوثة تغطى الأرض، والجميع يشمون الرائحة النتنة ويشتكون منها؟

أو أن تصور على الورق كائنات أوشكت أن تختفى فتحاتها التناسلية، كى لا نخدش حياة كاذباً لدى قراء يعرفون عن أمور الجنس أكثر مما يعرف السيد الكاتب؟

شعرت وأنا أقرأ يومياتى الوجيزة بأنى أمام مادة خام لعمل فنى، لا يتطلب منى بعد غير جهد التشكيل والصل. وشعرت أيضاً أنى قد وقعت أخيراً على صوتى الخاص.

كنت قد وجدت عملاً فى حانوت لبيع الكتب الأجنبية "تخرج" منه فيما بعد كل من رؤوف مسعد وعبد الحكيم قاسم. وكان عملى يحتم على التواجد فى الحانوت طول اليوم. وبهذا كانت الفرصة الوحيدة أمامى للكتابة الجادة هى يوم العطلة. ولازلت أذكر يوم كتبت الصفحة الأولى من "تلك الرائحة" فى مقهى بحديقة الأزبكية ذات صباح. ولم ألبث أن أدركت عبث هذا الوضع. فتركت العمل. وأتاح لى أحد الأصدقاء وهو الطبيب جمال صابر جبرة مكاناً بأوينى فى مسكن مهجور له فى مصر الجديدة امتلاً بالكتب القديمة. ووسط مؤلفات العلامة الأثرى سامى جبرة، ومجلدات شهداء القديسين، انقطعت للعمل فى روايتى الأولى، طوال ثلاثة شهور، شد من أزرى خلالها التأييد المعنوى من الصديقين العتيدين رؤوف مسعد وكمال القلش.

٥٩٩٢٠٤

قررت أن أحافظ على النفس اللاهث الذى ميز اليوميات، بعد أن رتبت محتوياتها بطريقة خاصة، وأضأت بعض جوانبها بهوامش مستفيضة جمعتها فى نهاية النص. وأطلقت على النص اسم "الرائحة النتنة فى أنفى".

وكان الدكتور يوسف إدريس - الذى تربطنى به علاقة قديمة منذ منتصف الخمسينات - هو الذى اعترض على فكرة الهوامش، واعتبرها مغالاة فى التجديد. وأقنعنى بنقلها إلى داخل النص. كما اعترض على العنوان الذى اخترته للرواية. وفى العيادة التى افتتحها فجأة فى ميدان الجيزة لممارسة العلاج النفسى، توصلنا معاً إلى اسم "تلك الرائحة". وكان كريماً معى بالمقدمة.

وأخيراً دفعت بالرواية إلى المطبعة بعد أن قدمت لناشرها عشرين جنيهاً. وأهدانى الرسام مصطفى حسين تصميماً للغلاف. وصدروا الرواية بمقدمة يوسف إدريس،

وبكلمة موجزة على الغلاف، أشبه بالمانفستو، من توقيع كمال القلش ورؤوف مسعد وعبد الحكيم قاسم هذا نصها:

”إذا لم تعجبك هذه الرواية التي بين يديك، فالذنب ليس ذنبنا، إنما العيب في الجو الثقافي والفني الذي نعيش فيه، والذي سادته طوال الأعوام الماضية الأعمال التقليدية والأشياء الساذجة السطحية.

ومن أجل كسر المناخ الفنى السائد الذى تجمد، نصمم على هذا النوع من الكتابة الصادقة المؤلة أحياناً.

فى هذا الإطار نقدم هذه الرواية للكاتب الجديد ”صنع الله إبراهيم“. وبعدها سنقدم مسرحية ”السود“ لنبيل بدران، وقصص قصيرة لكمال القلش وأحمد هاشم الشريف وعبد الحكيم قاسم، ومسرحيات لرؤوف مسعد، وقصائد لمحمد حمام.

وهذه الأسماء التى لم تتعودها ستقدم إليك فناً لم تتعوده أيضاً. فناً يعانى محاولة التعبير عن روح عصر وتجربة جيل. عصر اختفت فيه المسافات والحدود، وانهارت فيه الأوهام، ونفذ فيه الإنسان إلى حقيقة الوجود. وجيل ولد فى ظل الملكية والإقطاع وخرج فى المظاهرات التى هتفت بسقوط الملك والإنجليز، ثم تفتت وجدانه على ثورة يوليو وعاشها بالوعى والفعل، وشهد انهيار الملكية والرأسمالية وقيام الاشتراكية، كل هذه العمليات الهائلة فى سنوات قليلة. لهذا جاءت تجربته غنية عميقة مليئة بكافة التناقضات والأزمات التى زادت معرفته ووعياً بوجوده، وتطلبت فى التعبير كل جرأة وحدة حتى تتجسد إبداعاً خلاقاً.

هذا هو الطريق الذى اخترناه“.

ولا شك أن القارئ سيبتسم معى - اليوم - لهذه النبوة الحماسية المليئة بثقة لا حد لها (ربما عكست انعدام الثقة تماماً) والكلمات الفخمة من قبيل ”حقيقة الوجود“،

والأحكام التى ثبت خطأها مثل ”قيام الاشتراكية“. لكنها ساذجة البدايات، أو لعلها دفاع مستبِق عن النفس.

فما أصعب اللحظات التى مرت بى منذ صدرت الرواية. ففى ذلك الوقت كانت الكتابات الشائعة فى الصحف والمجلات المصرية تعزف على النغمة المعهودة فيما عرف بالأدب ”الواقعى الاشتراكى“: عدم إغفال الصورة الكلية، والإنجازات التى تحققت، إلخ. (وهى دعوى يتمسح بها الآن أكثر الكتاب تخلفاً ورجعية، مما يلقي ضوءاً كاشفاً على قيمة الدعوى وجدواها).

وكانت الأمة العربية - ومصر فى الطليعة - فى مواجهة ساخنة مع الإمبريالية الأمريكية وريبتها الصهيونية فضلاً عن الرجعية العربية. وكان من الطبيعى أن يلاحقنى تساؤل عما إذا كنت لا أضر بلدى بهذا العمل فى هذه الظروف.

وبالإضافة إلى ذلك كان سيف الاعتقال مسلطاً طول الوقت.

ووجد الكثيرون فى الكتاب مادة للتفكك والسخرية. وتلقفته بعض العناصر لتستغله فى خدمة مصالحها. فحمله عبد القادر حاتم إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ليشهده على ما وصل إليه ”الشيوعيون“ من تبذل وانحلال. وتوصل ”المؤتمر الإسلامى“ إلى نتيجة مماثلة. وآلنى أن تستغل ”مغامرتى“ للمساس بقوة سياسية أحترم كفاحها وتضحياتها على مدى عدة عقود.

ولاحقنى الشعور نفسه بعد ذلك عندما اضطررت لنشرها فى بيروت عام 1968، فى مجلة ”شعر“ التى كان يصدرها يوسف الخال عن جريدة النهار، فكلها جهات لا تعلق على الشبهات.

لكنى لم أندم أبداً على أنى كتبت هذه الرواية ونشرتها فى تلك الظروف. ولا ندمت على النهج الذى اتخذته فى التعبير، ولا فكرت فى التراجع عنه. حقاً كثيراً ما

هاينمان اللندنية في 1971، بحث المترجم دنيس جونسون ديفيز طويلاً عن أصل العبارة في رواية "بوليسيز" دون أن يعثر لها على أثر. وبالالتجاء إلى الخبراء بأعمال جويس أمكن الاستدلال على أصل العبارة في رواية "صورة الفنان في شبابه".

وكان دنيس جونسون ديفيز هو المسئول عن تعديل جوهرى بهذه الطبعة. فقد اشتمت دار النشر الإنجليزية من قلة عدد صفحات الكتاب. وكنت قد أضفت إلى تلك الرائحة "خمساً من القصص القصيرة. لكن دنيس لم يرض عن إحدى هذه القصص. وهى من قصص الطفولة وبمعنوان "الشيكولاتة". وجعل يلح على أن أكتب واحدة جديدة، لكنى لم أتمكن. عندئذ فكرت فى تضمين الموقف الأساسى لقصة "الشيكولاتة" بالرواية. وهذا ما تم بالفعل، وكسبت دار النشر أقل من صفحتين جديدتين. وعند إعداد هذه الطبعة رأيت من المناسب أن أفعل المثل، فأضفت إلى النص الأسمى الفقرة الواردة بين أقواس قرب نهاية الرواية.

صنع الله إبراهيم

القاهرة 1986

خالجنى الشعور بأنى قد أجهضت عملاً كبيراً. إلا أنى لا أثبت. أن أقتنع بالقول أن تلك كانت حدود إمكانياتى حينذاك.

أما التوجه ذاته، الإنصات للصوت الداخلى، والاعتراف من صلب الواقع الحقيقى، دون مراعاة للمشاعر البرجوازية الحساسة، أو لبعض الاعتبارات المرحلية، فمازلت اعتمده أساساً لعملى.

لم تفلح المصادرة فى القضاء على الكتاب، فقد وجد. وهو درس يجب أن تعينه جيداً أجهزة الدولة فى البلدان العربية.

وفى سنة 1969، أثناء وجودى فى الخارج، أصدرت دار النشر (التي تغير اسمها من "مكتب يوليو" إلى "دار الثقافة الجديدة")، طبعة ثانية من الرواية بعد أن انتزعت منها - ودون إذن منى - كل ما تصورت أنه قد يثير غضب الرقيب. ولا أستبعد أن تكون قد لجأت إلى ذلك النوع من الرقابة الذى أفرزته الحياة فى ذلك الحين، وهو رقيب "قطاع خاص" يقدم خبرته فى الجهاز الرقابى لمن يشاء من المؤلفين أو الناشرين. ووفقاً لاتفاق خاص بين الناشر وناشر آخر وهو "كتابات معاصرة"، أعيد إصدار نفس الطبعة فى القاهرة سنة 1971.

وتعتبر الطبعة الحالية أول طبعة كاملة منذ مصادرة الطبعة الأولى (فلم تسلم طبعة مجلة شعر من المقص المعهود الذى اقتطع كل ما من شأنه أن يؤذى المشاعر الحساسة لقرائها). ومن الطبيعى أنى قمت بتصحيح الأخطاء النحوية واللغوية التى وردت فى الطبعة الأصلية بالإضافة إلى حالات السهو، من قبيل الإشارة إلى طفل بصيغة المذكر ثم الإشارة إلى نفس الطفل فى مكان آخر بصيغة المؤنث. كما صححت مصدر الاقتباس الذى صدرت به الرواية لجيمس جويس. وفى الطبعة الأصلية ذكرت أنه عن رواية "بوليسيز". وكنت قد طالعت العبارة المقتبسة فى مقال نقدى بالملحق الأدبى للتايمس اللندنية. ونسبتها - خطأً فيما يبدو - إلى الرواية الشهيرة. وأثناء إعداد الترجمة الإنجليزية، التى صدرت عن دار

أنا نتاج هذا الجنس وهذه الحياة

ولسوف أعبّر عن نفسي كما أنا...

جيمس جويس: صورة الفنان في شبابه

www.alkottob.com

مقدمة يوسف إدريس للطبعة الأولى

ليست مجرد قصة

أعترف بأنى شديد الضعف تجاه المواهب، وليس أسهل من الكتابة وسيلة تخدعك عن الموهبة، والكتابة موهبة كل إنسان، مثلها مثل الكلام، ولكن قليلون أولئك الذين باستطاعتهم أن يخلقوا من الكلام فناً، وتمييز الذهب من القشرة فى حاجة إلى صانع، والمواهب كالمعادن فى حاجة إلى ميتالرجيست ليفند ويقيم، ولست هذا الصانع أو أخصائى المعادن، ولكنى أحس بالموهبة مثل إحساسى بالخطر أو الأمل أو الضيق، ولقد عرفت صاحب هذا الكتاب منذ أكثر من عشر سنوات، دقيق الجسم، دقيق ملامح الوجه، أحياناً أحس به كالتائر الذى يضع منظراً، ومنذ عرفت صنع الله وهو أصيل لم أشهده مرة متلبساً بخاطر ليس من صنعه أو بفكرة لم يشق فى تحصيلها، وأسماء كثيرة أطلقتها عليه، أول ما عرفته سميته داستايوفسكى أو كما تعودنا تسميته دوستيوفسكى فقد كان يكتب بطريقة مناسبة فياضة تحس أو وراءها نبعا لا ينضب، وكانت الشخصية المحببة إليه أيامها هى خليل بك وهو نموذج بشرى التقطته موهبة صنع الله كما يلتقط طائر النورس من طيرانه العالى ظهر السمكة وينقض عليها. وخلق صنع الله من خليل بك شخصية يمكن أن يكتب عنها عشرات

الكتب دون أن يفرغ محتواها، كان أيامها في العشرينات. ولكن قصصه كانت تقترب من الأربعمينيات الناضجة. كان متدفقاً غزيراً بحيث أنى أحس بالأسف الشديد كلما تذكرت موهبته في ذلك الحين. إذا كان النبات في حاجة إلى رعاية خاصة. والزهور النادرة في حاجة إلى بيوت من زجاج وتكييف هواء، والحيوان أيضاً، في المزارع الحديثة نرعاها وندقق في اختيار طعامه، وتوفير الراحة له ليدر اللبن، ما بالك بأرقى ما وصلت إليه في تطورها الحياة، كل أنواع الحياة، الإنسان الفنان. وصنع الله أيامها لم يكن يطمح في رعاية أكثر من أن ينضج النشر بعض ما يعج به درج مكتبه، وعملاً ولا شئ غير هذا. ولكننا بنفس الإسراف العبيط الذي نبعثر به الأشياء ما أكثر ما بعثرنا من المواهب. وهكذا كتب على دوستيوفسكى صنع الله إبراهيم أن لا يرى النور، وأن تضع مسوداته وكتابته وتهدر، وأن يتوقف عن الكتابة فترة طويلة، وخلال غيابك كنت دائم السؤال عنه خائفاً أن يعود الشاب ولا يعود الفنان. وفعلاً عاد الشاب وقابلهت وسألته إن كان قد كتب، وفي خجل من نوع خاص أعطاني هذه الرواية القصيرة التي قرأتها، بل والتهمت في جلسة واحدة، جلسة كنت خلالها كثيراً ما أسخط على الكاتب وكثيراً ما افتقد صنع الله الأول وكثيراً ما أحس أنه يريد وكأنما بصبر أيوب أن يؤلم القارئ ويؤذيه. ولكنى حين انتهيت أحسست أنى لست فقط أمام فنان عاد ولكنى أمام موهبة جديدة، وكأنما ولدت في الغيبة، والغريب أنه بالقدر الذي كانت تبدو فيه موهبته الأولى أكبر من سنه بكثير، تكاد تكون ضعف سنه، هذه المرة وجدت الشاب الذى أوشك على الثلاثين يكتب بروح ابن عشرين، دافئ التجربة طازج الإحساس، والحزن في نفسه طبقات ولكنه حزن الصبا، الحزن الدافع إلى اللاحزن والأمل، وجدت العقل ذلك الذى كان يغلق على نفسه الطريق لا يريد أن يراه، وجدته هنا يرى أولاً ويتفعل أولاً، ويقطر رؤاه وانفعالاته على الورق بلا أى محاولة لإخضاعها لفلسفة معينة أو نظريات، وجدته قد آمن هذه المرة بالإنسان كظاهرة أعظم من كل الظواهر وأصبحت أشجان

الإنسان الصغيرة أهم آلاف المرات من المعادلات مهما بدت رائعة الانضباط فوق الورق. وجدت الفنان الذى فيه قد ثار ثورتين، ثورة إلى الخارج، وثورة إلى داخل نفسه، يحطم قيوداً كثيرة كانت تجعله لا يصل إلا لسطح عقله ووجدانه وتمنعه أن يغوص فى أعماقه ويغامر ويستكشف، عشر مرات قد يخرج بيده خاوية، ولكنه بالتأكيد ذات مرة سيخرج بحقيقة قد تكفيه عمراً بأكمله. هنا أصبح صنع الله قصير الجمل حادها، قصير النفس، يلتقطه بسرعة ويخرجه ليُدخِر قواه كلها للغوص وللمغامرة والاكتشاف. هنا أصبح صنع الله مرأً، ليست مرارة حاقدة، ولكنها مرارة من يريد أن يتخلص، ويتخلص قراؤه، من كل شعور بالمرارة، صريحاً فى أهدافه القصيرة. صريحاً إلى درجة أشمأزت نفسى فيها من بعض تعبيراته، ولكن مقابل صراحته القصيرة هذه هناك خبث فنى مخفى يخاطب، من وراء ظهر القارئ وعقله، والوجدان، أعرق طبقات الوجدان. هنا فى هذه الرواية القصيرة لخص لى صنع الله ليس فترة هامة من حياة بطل القصة، إنما فترة أهم من حياة جيل صنع الله، ذلك التلخيص الساحر المركز شديد المفعول. إنها ليست قصة، قل إنها صفة أو صرخة أو آهة منبهة قوية تكاد تثير الهلع. لم يعد لدى الفنان وقتاً لينمق ويصوغ الأحاسيس ببراعة تستدر الإعجاب. إنه هنا يريد أن يستدر انفعالات أقوى من الإعجاب به ككاتب، أو الإعجاب بقصته كموضوع. إن البطل هنا ليس الرجل، وليس الشاب، وليست الأحداث أو العصر. البطل هنا هو إحساس عام طاغ لا اسم له - إلى الآن على الأقل - وحتى حين حاول صنع الله بعنوان القصة، "تلك الرائحة" أن يسميه، هو فيما أعتقد قد فشل، بل إنى لأجد نفسى الآن فى حرج شديد وأنا أحاول أن أنتقى اسماً لهذا الإحساس العام الذى نحتة وخلقه صنع الله وأدخله دائرة الفن والأدب، ليس الإحساس بالغربة أو الاشمئزاز أو الضياع أو الثورة أو افتقاد الحنان أو الوجود، إنه إحساس مختلف، من المجحف لصنع الله وهذا العمل أن أحاول أن أعطيه اسماً أو أثير مشكلة حوله، فإنى أريدكم معى، أن تقرأوا القصة،

وتخوضوا التجربة وتحسوه، ولتطلقوا عليه بعد هذا ما سئتم من أسماء.

إنى لشديد الاعتزاز بصنع الله الفنان، وسعيد حقيقة وأنا أحس أنه قد آن الأوان لتقرأه الحركة الفنية والأدبية فى كتاب كامل فى قصة من أجمل ما قرأت باللغة العربية خلال السنوات القليلة الماضية.

إن "تلك الراححة" ليست مجرد قصة، ولكنها ثورة، وأولها ثورة فنان على نفسه، وهى ليست نهاية، ولكنها بداية أصيلة لوهبة أصيلة، بداية فيها كل ميزات البداية ولكنها تكاد تخلو من عيوب البدايات لأنها أيضاً موهبة ناضجة.

يوسف إويس

1966

تلك الراححة

قال الضابط: ما هو عنوانك؟ قلت: ليس لى عنوان.

تطلع إلى فى دهشة: إلى أين إذن ستذهب أو أين تقيم؟ قلت: لا

أعرف. ليس لى أحد. قال الضابط: لا أستطيع أن أتركك تذهب

هكذا. قلت: لقد كنت أعيش بمفردى. قال: لا بد أن نعرف مكانك لنذهب إليك كل ليلة.

ليذهب معك عسكرى. وهكذا خرجنا إلى الشارع وأنا والعسكرى. وتلفت حولى فى فضول. هذه

هى اللحظة التى كنت أحلم بها دائماً طوال السنوات الماضية. وفتشت فى داخلى عن شعور

غير عادى، فرح أو بهجة أو انفعال ما، فلم أجد. الناس تسير وتتكلم وتتحرك بشكل

طبيعى كأننى كنت معهم دائماً ولم يحدث شئ. وقال العسكرى: لناخذ تاكسياً. وقلت فى

نفسى إنه يريد أن يتنزه على حسابى. وذهبنا إلى بيت أخى. وقال لى أخى على السلم إنه

مسافر ولا بد أن يغلق الشقة. ونزلنا وذهبنا إلى صديقى. وقال صديقى: أختى هنا ولا

أستطيع أن أقبلك. وعدنا إلى الشارع. وبدأ العسكرى يتبرم. وبدت الشراسة فى عينيه. وقلت

فى نفسى إنه يريد العشرة قروش. وقال لا يمكن أن نظل هكذا. بنا إلى القسم. وفى القسم كان

هناك عسكرى آخر. وقال: أنت مشكلة ولا يمكن أن نتركك. جلست أمامه ووضعت حقيبتى

على الأرض وأشعلت سيجارة. وجاء الليل وقال إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً. ونادى على عسكري ثالث وقال له ضعه في الحجز. وفتدوني إلى حجرة مغلقة يقف عسكري رابع ببابها. وفتشني العسكري وأخذ نقودي ووضعها في جيبه. وأدخلني حجرة واسعة تدور بجدرانها عارضة خشبية مرتفعة عن الأرض. وجلست على العارضة. وكان هناك رجال كثيرون. وفي كل لحظة كان الباب يُفتح ليدخل آخرون. وأحسست بوخز في رقبتي. ومددت يدي إلى رقبتي فشعرت ببلبل. ونظرت إلى يدي فوجدت بقعة دم كبيرة على أصبعي. وفي اللحظة التالية شاهدت عشرات من البق على ملابسي. ووقفت. ولأول مرة رأيت بقع الدم الكبيرة التي تلوث جدران الحجرة في كل مكان. وضحك أحد الموجودين وقال لي: تعالي هنا. وكان هناك بعض الذين جلسوا على الأرض. وفرش أحدهم بطانية ممزقة على الأرض. ووجدت مكاناً صغيراً في حافتها جلست فوقه وأسندت ذنقي إلى رقبتي. وقال لي صاحب البطانية: لماذا لا تنام؟ لكن لم يكن هناك مكان لجسدي. وقلت: أنا أفضل الجلوس هكذا. وسألني آخر: مخدرات؟ قلت: لا. قال: سرقة؟ قلت: لا. قتل؟ لا. رشوة؟ لا. تزييف؟ لا. وسكت الرجل حائراً وجعل ينظر لي نظرة غريبة. وبدأت أرتجف من البرد فقامت أتمشي قليلاً. وعدت أجلس. وتعبت من جلستي فاتخذت وضعاً آخر. وأخرج أحدهم بطانية كان يطويها تحته وجعل يستعد للنوم. وأخذت أتسلى بتصيد البق الذي يجري على الأرض وقتله. وأحسيت رأسي فجأة على صدري. فلم أكن أريد منهم أن يروا وجهي. وكانوا قد بدأوا يستسلمون للنوم. وأمامي رقد عجوز على العارضة. وفتح العسكري الباب ونادى عليه قائلاً: هناك من يسأل عنك. وعاد العجوز يحمل بطانية ووسادة وتمدد فوق العارضة وتغطى بالبطانية وأسند رأسه إلى الوسادة وسرعان ما نام وهو يتنفس بصوت عال ولم يعبأ بالبق. وبجواره جلس رجل يحرق في وجهي وقد دس يديه في جيبي معطفه المفتوح الذي كشف عن صدره العاري. فلم يكن يرتدي شيئاً تحت المعطف. وأطلق هذا الرجل فجأة عواءً غريباً

مروعاً ثم قام واقترب مني وهو يترنح. وضحك في وجهي ثم جلس بجواري، وتطلع أمامه في زهول، ثم عوى. وقام إليه شاب ضخم الجثة فضربه على وجهه. وقال المجنون وهو يرفع ساعده ليحمي وجهه: لا تضربني. وانهالت ضربات الشاب عليه. وسمعت صوت عظامه تططق. وسقط في مكانه وهو يلهث. وضحك الآخرون. وجذب صاحب البطانية البطانية فوقه وبسطها بيده على صبي ممتلئ ينام إلى جواره. ورأيت وجه الصبي قبل أن تغطيه البطانية. كانت له بشرة خميرية وشفتان ممتلئتان. وكان غارقاً في النوم وقد ثنى ركبتيه. وأحاطه الرجل بساعده أسفل البطانية. وجعل يتحرك حتى التصق به. وراحت ذراعه تحت البطانية وهي تتحرك على جسد الصبي تنزع بنطالونه. والتصق ساقا الرجل بظهر الصبي. وبجوار الصبي جلس الشاب الضخم الذي ضرب المجنون. وكان يتابع ما يجري أسفل البطانية ويرفع عينيه كل لحظة فتلتقيان بعيني. وهذأت الحركة أسفل البطانية بعد قليل. وهتز الغطاء وقام الصبي جالساً وهو يمسح عينيه ليفيق من النوم. وجعل يتطلع بين ساقيه. وغفوت قليلاً وأنا جالس ثم تنبهت. وام أر الشاب الضخم ثم لمحت ساقيه من تحت البطانية. كان ينام محتضناً الصبي. وقمت أتمشي. واهتزت البطانية. وجذبها الشاب من فوق الصبي والتف بها كلها. ورقد الصبي عاري الفخذين. وبدأ الظلام ينجلى. وراقبت نور الفجر وهو ينتشر. وفتحوا لنا أخيراً لنفتسل. وأخذوا الصبي لينظف الفناء. وأحضر الباقون طعاماً وأفطروا. وظهر الصبي عند الباب وسأل: ألم تتركوا لي شيئاً؟ وقال الشاب الضخم: لا. وجعل العسكري ينادي أسماء. وسمعت اسمي. وحملت حقيبتي وخرجت. وعند عسكري الأمس وجدت أختي. وسلمني دفتراً صغيراً يحمل اسمي وصورتي. وخرجنا أنا وأختي إلى الشارع. وقالت: أتريد أن تشرب شيئاً؟ قلت: أريد أن أمشي. وأخذتني إلى حجرة في مصر الجديدة. وأخذت ملابس نظيفة ودخلت الحمام. وأغلقت الباب خلفي. وخلعت ملابسني ووقفت عارياً تحت الدش. ثم دعكت جسمي بالصابون وفتحت

الدش فوقى. ورفعت رأسى إلى أعلى وحدقت عيناي فى عيون الدش الصغيرة. وسالت منه المياه وأجبرتني على أن أغمض عيني. وأحنيت رأسى وتابعت الصابون وهو ينحدر على جسمى مع المياه ثم يجرى على الأرض حتى البالوعة. ودعكت جسمى بالصابون مرة أخرى. ومن جديد تابعت مياه الدش وهى تأخذ الصابون وتجري به حتى البالوعة. وأغمضت عيني ووقفت تحت الماء بلا حراك: ثم أغلقت الصنبور. وتناولت الفوطة وجففت بها جسمى فى بطنى، ثم ارتديت ملابسى وغادرت الحمام. وأشعلت سيجارة. وقالت أختى: نذهب إلى السينما. وذهبنا. وكان فيلماً عن طيور يزداد حجمها وعددها حتى تتوحش وتطارد الناس وتفترس الأطفال. وشعرت بصداع حاد. وعدنا إلى الحجرة. وانهمكت أختى فى تنظيفها، وأخذت أتقل بين الصالة والمطبخ والحجرة وأنا أدخن وأتخاشى الاقتراب من النافذة. وخلصت ملابسى وتمددت على السرير. ودق الجرس فقامت أفتح. كان العسكري هو الطارق وقلت له: دقيقة واحدة. وأسرعت إلى الحجرة فجننت بالدقتر وأعطيته له، فكتب اسم أمام اليوم وانصرف. وعدت إلى السرير فاستلقيت فوقه. وأشعلت سيجارة. وجعلت أتأما السقف. وجاء العسكري مرة أخرى. وظللت ممدداً على السرير دون أن أنام. ودخنت كثيراً وجاء الصباح فقامت واغتسلت وارتديت ملابسى وخرجت. وتناولت ساندويتشاً، وابتعدت صبح الصباح كلها، ثم ركبت المترو. وراقبت أبواب العربة وهى تنغلق. ووقفت بجوار حجرة السيدات، وجعلت أتأملهن واحدة واحدة. كانت شعورهن مصففة بأشكال معقدة ووجهن مثقلة بالأصباغ. ونزلت فى الإسعاف. وكان هناك رجل على الرصيف بجوار الحاء وقد غطته جرائد ملوثة بالدماء، وعلى الرصيف وسط الشارع تجمعت عدة نساء بملاء سوداء جعلن يلوحن بأيديهن ناحية الرجل وهن يولولن. وركبت الأتوبيس إلى بيت منذ وقابلتنى أمها. وقبلت يدها. ولم تعرفنى فى البداية. وجلسنا نتحدث. وكان لا بد أحدثها عن زوجها. وقلت لها إنى كنت معه إلى آخر لحظة.

كنت أجلس إلى جواره ويدي مقيدة إلى يده. وكنا فى مؤخرة السيارة وخلفنا بقية السيارات. وكان هو يعرف ما سيحدث لكنه لم يقل شيئاً. وكان يردد فى صوت خافت مقطعاً من أغنية حب قديمة. وكان الهواء لاذعاً ولم يكن من شئ يقينا برودته. وأخذت أرتجف وأسنانى تصطك. ولم تكن نرى شيئاً من الطريق. وجعلنا نتحدث عن هيمنجواى. وفى الظلام رأيتة يخرج مشطاً من جيبه ويمشط شعره الذى امتلأ بالبياض. وكنت أعرف أنه يصبغه ليخفى بياضه. وكان الصمت يسود العربة. وأمأنا لف أحمد رأسه بفوطة وهو يتأوه. كان الصداع يفترس رأسه عندما يرتجف داخله. وعندما وصلنا كان ذلك فى الفجر. وأنزلونا بالعصى. وجلسنا على الأرض. وكنا نرتعش من البرد والرغبة. وكان هو أطولنا. وسمعت صوتاً يقول: ها هو. وضربوه على رأسه. وقالوا له: اخفض رأسك يا كلب. وأخذوا ينادون علينا. ثم نادوا عليه. وكانت هذه هى آخر مرة رأيتة فيها. وقالت لى: تصور جاعنى منه خطاب قبلها يقول فيه إن الأمر لن يستمر طويلاً. وقلت لها إنه كان يقول لى دائماً إنه لم يحدث أن نام بالليل ومنى بين ذراعيه. وكان يصفق بيديه ويقول: سأطلق قبلكم. كان يود الانطلاق بأى ثمن. وتطلعت أم منى بإعياء حولها وهبطت جفناها المنتفخان فوق عينيها. وغاص رأسها فى جسدها المترهل القصير. وأشارت لى أن أقترب منها وهمست: هل كان يحبني حقيقة؟ وقلت لها: بالطبع.

فماذا أقول لها، وما الفائدة أن نحقق الأمر على وجه الدقة بعد أن انتهى كل شئ، ثم من ذا الذى يعرف على وجه الدقة ما يدور داخل إنسان آخر؟ ويقولون إن بعض الناس خلق للحب، والبعض الآخر لم يُخلق له. ويقول آخرون إن الحب لا يوجد إلا فى الروايات. أما هو فقد حكى لى مرة حكاية واحدة طارده أهلها بالنبايت لأنه لم يكن من دينها. ثم كانت هناك واحدة أخرى لكنها ماتت

فجأة. وثالثة اكتشف أنها اتفقت مع زوجها على ضرورة إنجاب طفل بأى طريقة. وكان قد تعدى الخامسة والأربعين ويقترب من الخمسين. وكان يريد طفلاً. وفى يوم كنا نقف فى الشمس سوياً وكان شاردأ. وكنت أثرثر بينما هو مستسلم لشروده. ولم يكن يصغى لى. وربما كان يحسب الأمر فى ذهنه ... لكنى فى مرة كنت أهبط السلم بجواره، وكنا نقرب من الطابق الأرضى. وسمعنا صوت دق سريع متلاحق على السلم. ثم ظهرت أمامنا فتاة طويلة توقفت أمام باب المصعد. وكان ضوء الشمس يسقط من نوافذ السلم الزجاجية على وجهها. وتطلعت نحونا. كانت تضحك لسبب ما وشعرها ثائر وخداها حمراوان. ولم تكن تستقر فى مكانها. وكان يهبط بجوارى وعيناه عليها. وسمعته يصعد تنهيدة حارة.

وقامت إلى حجرتها وعادت حافظة صغيرة أخرجت منها بعض الأوراق وناولتني ورقة بالية وقالت: هذه قميدة كتبها لى قبل أن نتزوج.

وكانت شاردة بنظراتها دائماً وعندما يسألها فيما تفكر تقول: فى

الحياة والموت. وكتب هو:

أنا حزين يا طفلى. حزين ووحيد.

فى فراشى أرقد،

فراش بارد وميت ..

بلا أحد أتحدث إليه

بالكتب كلها وقد قرأتها

بلا أحد أضحك معه

بلا دموع أنزفها.

إنه الموت

بل أقطع

فعندما تموت لا تستطيع أن تفكر

إلا إذا كان الدود يفكر

وعندما تكون وحيداً، تفكر

تتوق وتتطلع وتسعى

ولا تعرف ما تسعى إليه.

إنها الحياة والموت ..

إنها ليست حياة على الإطلاق

سوى أنى لم أمت بعد ...

.....

لكن صه! ها هى بعض الخطى

خطى بشرية

إنهم أتون، إنهم يقتربون

أهم حقاً؟ أجل! كلا! ربما! أجل! ها هم يدقون الجرس

أسمع خطى بشرية

أسمع أصواتاً بشرية

تسطع بالضحك.

صديق؟ كلا، أكثر ...

إنهم أصدقاء يا طفلى.

.....

لست حزيناً بعد يا طفلى،

لكنى خائف

فهم سير حلون ويتركوننى من جديد

للحياة والموت!

ودق الجرس ودخل صخر، وكان قد حلق شاربه ومشط شعره وحمل كل صحف الصباح تحت إبطه. ودق الجرس مرة أخرى ودخل شاب أنيق. وقالت له السيدة مشيرة إلى صخر: هذا صديق زوجي. وقال الشاب: أعرفه. وقام صخر على الفور ولبس نظارته، وجعل يتمشى في الحجرة. وكانت هناك بعض الكتب بالإنجليزية والفرنسية على الرف فجعل يقلب فيها ثم وضع يده في خاصرته، وحمل كتاباً منها إلى النافذة ففتحه، وجعل يقلب في صفحاته وهو ينظر للشاب الأنيق من فوق نظارته بين اللحظة والأخرى.

لا بد أنها كانت من أسعد لحظاته. إذ يشعر أن ثمة شخص يعرفه لسبب ما. ففيما مضى كان يعتقد أن الجميع يعرفونه ثم اكتشف الحقيقة تدريجياً. وعندما رأيته لأول مرة كان عاري الصدر يمشى بخطوات بطيئة ويرفع إصبعه كل لحظة ليذاعب شاربه. وفي تلك الأيام كان الزعماء يحتفظون بشوارب مختلفة الأشكال. ولم تكن صدفة أن كل واحد منهم كان له شارب متميز عن الآخر. ثم اكتشف أن هذه الشوارب كانت خداعة. فقد ذهب أصحابها وذهب موداتها. ولم يبق شئ في القلب. ولم يكن قد امتلأ مرة. وفي الباب الحديدى جعل يضرب رأسه حتى كادت تتشق. وكان بيكى.

ومن النافذة رأيت فتاة في المنزل المقابل تحتضن فتاة أخرى وتقبلها في شفتيها. ودخلت فتاة عوراء وبكت. وأخذ صخر يمسح على شعرها بيده وهي تبكى. وقالت السيدة إن الفتاة هكذا، ما أن ترى رجلاً حتى تبكى. وعادت منى أخيراً من المدرسة، وقلت لها: أنا صديق بابا. فنظرت إلى فى عداً. وأخذتها إلى النادى. وكان هناك أطفال آخرون. وقلت لهم

أن ينزلوا معها إلى المياه لأنى لا أعرف السباحة. وأخذوها ونزلوا. وجعلت تجرى وتلعب وهى سعيدة. وكان هناك خشبة تساعد على العموم. فتعلقت بها. لكن طفلة أخرى سمينة جذبت منها الخشبة لتعموم فوقها. وتشبثت منى بالخشبة. وأمسكتها الطفلة السمينة من شعرها وجذبتة فى عنف لتبعدها عن الخشبة، وأخذت الخشبة ونامت فوقها. كانت منى الآن بعيدة عن حافة الحوض، وأسرت أجرى ناحيتها على الأرض. كانت ترتفع وتهبط فى الماء وهى تلهث فى قوة، وقد اتسعت عينها فى رعب. وناديت عليها. لكنها هبطت تحت الماء ولم تظهر ثانية. وأسرع أحد السباحين إلى نجدتها وجذبها إلى أعلى، وحملها إلى. وأخذتها إلى بيتها. وقالت لى ونحن نصعد السلم: عندما يكون هناك أحد سأقول إنك أبى فلا تقول لا. ودخلنا المنزل. كانت أمها ترتدى ملابسها فانتظرتها. ثم وقعت عيني على ساعة الحائط فقفزت واقفاً، وأسرعت إلى الباب وقفزت إلى الشارع. لم يكن هناك وقت على موعد مجئ العسكرى. ووصلت حجرتى وأنا ألهث. ووجدت خطاباً ينتظرنى. وبحثت عن اسم الراسل فوجدته من نجوى. قرأت الخطاب فى بظه. ثم أشعلت سيجارة وتمددت على السرير، وقرأت الخطاب من جديد. كانت تتساءل عما إذا كنا سنلتقى من جديد بعد كل هذه السنين. وأغمضت عيني على ما أمكننى استرجاعه من صورتها: عينيها الحانيتين وفمها الممتلئ. ودق الجرس فقامت أفتح. كان العسكرى. واستمهلته حتى عدت إلى الحجرة، فأحضرت الدفتر وأعطيته له، فوقع اسمه، وانصرف. واحتفظت بالدفتر فى جيبى إلى حين عودته. ودق الجرس ثانية. وعندما فتحت الباب وجدت نجوى أمامى. احتضنتها وضممتنى هى بعنف وألصقت جسمها كله بجسمى. لكنى لم ألتصق بها. وأبعدتها عنى، وجعلت أتأملها. ثم اقتدتها إلى الحجرة وأطفأت النور. وجلست على السرير وأجلستها بجوارى. ثم جذبتها ناحيتى وقبلتها فى شفتيها. أبعدت وجهها وقالت: احكى لى. لم تكن عندى رغبة فى الحديث. ومررت بيدي على وجهها. كان ساخناً ناعماً. وأبعدت وجهها وهى تقول:

تكلم، قل ما حدث. ووضعت يدي على فمها وجذبت رأسها إلى وقبلتها. وأمسكت بشفتيها بين شفتي. وعضتني هي بنفس الطريقة الفجة غير المدربة ثم ابتعدت عني.

هذا ما كان يحدث دائماً. في أول مرة قبلتها كانت خجلى. وكنت أجلس بجوارها والضوء يسقط على خدها. وتوقفنا عن الكلام وأسندت رأسي إلى كتفها ولم تعترض. وقبلتها في خدها. ثم شفتيها. وعندما تشجعنا قليلاً، أمسكت بشفتي التحتية وعضتها بقسوة. وتألمت. كنت أريد أن أحس بشفتيها ناعمة في فمي. ولم أكن أشبع منها. ولو استطعت أن أظل محتضناً إياها طول اليوم لفعلت. كانت هناك سخونة في وجهها وفي ساقها. وعقب كل مرة كنت أجعلها تقف عارية وأتأمل ساقها. كانا ينسابان في جمال ونعومة وسمرة. وكنت أطلب منها أن تعري ساعديها لأقبلهما وأحسهما على جسدي. لكنها كانت تتردد. وفي الظلام كنا نرقد، ونلتصق ببعض في عنف لننسى العالم وكل شيء ولا نعود نفكر في أي شيء أو نخاف من أي شيء وعندما يكون خدي لصق خدها وأنفانا متلامسين ورأسانا متجاورين وعيوننا تحديق إلى نفس المكان من السقف، لا تصبح هناك أهمية لأي شيء. وفي اللحظة التالية يتحرك رأسي وتزحف شفتاي إلى شفتيها، وتبادل القبل، أحياناً في رقة وأحياناً في عنف. ثم تبتعد برأسها وتتهدد. وفي أول مرة احتضنتني في عنف وقالت: أين كنت من زمان؟ وفي المرة الثانية قالت: يا حبيبي. وظللت صامتاً والكلمة تتردد في أذني للمرة الأولى في حياتي وأنا لا أصدق نفسي. لكنها سرعان ما كانت تستدير وتقول: أريد أن أنام. وأظل راقداً على ظهري، وعيناني على السقف بمفردهما، وأتمنى أن تستدير فجأة وتحتضنني. لكني لا ألبث أن أشعر بتنفسها المنتظم، تنفس النائم الراضى القانع. وأستدير برأسي وأهب قليلاً لأراها، وقد أحننت رأسها إلى أسفل وأسندته إلى ساعدها وراحت في النوم وقد تتأثر

شعرها حول عنقها وتمدد ساعدها الآخر فوق جانبها. وأمر ببصري على جسدها كله ثم أعود إلى مكاني.

تمددت بجوارى وأسندت خدها إلى يدها. وأعطتني وجهها الذي أضاهه جانب من ضوء القمر. قالت: سأحكي لك أنا. تكلمت كثيراً ثم سكتت. وقلت لها إنني متعب. وإنني كنت أتشوق لها دائماً. وجذبتها ناحيتي. لكنها ابتعدت. وطلبت منها أن تعري ساعديها. قبلت ساعدها وكتفها في ضوء القمر. لكنها ما لبثت أن قالت: الدنيا برد. وغطتهما. ثم تمددت على ظهرها. ولا بد أنها كانت تفكر في نفس الشيء الذي أفكر فيه. هناك شيء ما ضاع وانكسر. وقالت: أريد أن أنام. وجذبتها ناحيتي وقبلتها. وطففت بشفتي على خدها حتى أذنها فقبلتها وسكنت هناك حتى ارتعشت. ورفعت عينيها إلىً وابتسمت وقالت: وهذه أيضاً، من أين تعلمتها؟

كيف ظلت تذكر وأنا قد نسيت. عندما صعدت بشفتي على ساقها، وقبلتها هناك لأول مرة، ونظرت لي بمزيج من السرور والدهشة والخجل، وقالت: من أين تعلمت هذا؟

مددت يدي إلى صدرها. لكنها أبعدت يدي. وقالت: لا. وتركتها. وتمددت بجوارها. وانتظرت أن تستدير فجأة وتحتضنني. لكنها لم تفعل. وظللت مستيقظاً. ثم شعرت بألم بين ساقى. فقممت إلى الحمام. وتخلصت من رغبتى. وعدت فتمددت إلى جوارها. ونمت واستيقظت. ونمت مرة أخرى. وعندما فتحت عيني في الصباح وجدتها قد ارتدت ملابسها. وقالت سأخرج الآن. قلت: متى سأراك؟ قالت: سأمر عليك. وظللت ممدداً فوق الفراش. ثم قمت أخيراً فاغتسلت. وجمعت ملابسى القذرة، ووضعتها في إناء من الماء بعد أن أضفت إليه مسحوق الصابون، وحركته حتى كون رغوة كبيرة. وجاءت أختي وخطيبها. وارتديت ملابسى وخرجنا. وابتعدت صحف الصباح. وفي مدخل المنزل التقينا بصديقة أختي

وخالها. وذهبنا إلى الكازينو. وقال خطيب أختى: نريد أن نفرح بك. وقلت له: هذه المسائل تستغرق وقتاً. وقال: لماذا؟ قلت: الحب ليس سهلاً. هز كتفه وقال: اسمع نصيحتى: الحب يأتي بعد الزواج. وقال الخال: لقد تزوجت خمس مرات. وتركتهم وذهبت إلى سامى فى بيته. وأدخلونى إلى حجرة الصالون. وانتظرت طويلاً. ودخلت الحجرة طفلة أدركت أنها ابنته. ووقفت بجانبى. وكنت متعباً وأريد أن أذهب إلى دورة المياه. وأطلقت من ظهري رائحة شمتهما الطفلة. وقالت: رائحة كاكأ. وتجاهلت الأمر. لكنها عادةً تردد: رائحة كاكأ. فجعلت أتشم حولي وأقول لها أين حتى اختفت الرائحة. وأخيراً يئست من مجئ سامى فقمته وانصرفت. وكان الزحام شديداً. وذهبت إلى المجلة فلم أجد أحداً. وفى الشارع كان الراديو عالياً، وسمعت أغنية إنجليزية عن الأطفال. واكتشفت أنها نفس الأغنية الجديدة التى يغنيها محمد فوزى. وركبت المترو. وكان الزحام فظيماً وكدت أختنق. وراقبت وجوه السيدات المتعبة وقد ساح الكحل عليهما. وذهبت إلى بيت سامية، ووجدتهم يأكلون. ابتسمت سامية عندما رأتنى وقالت إنها انتظرتنى طويلاً قبل أن تأكل. وكدت أسألها: صحيح؟ وسألتهما عن طفلها فقالت إنه نائم. وشعرت بنفسى أبتسم. وكانت ابتسامتها بسيطة صريحة. ولم أكن أتصورها بهذه البساطة والرفقة.

ماذا بعد؟ عندها زوجها وطفلها ولا مكان لأحد آخر فى حياتها وسرعان

ما سأنصرف وسيكون هذا هو نهاية كل شئ.

وكانت تتنهد بين الحين والآخر تنهيدة حارة وتقول: يا رب. وقلت لها: لو سمعك فرويد لقال لك شيئاً. فقالت: بل أشياء. وفرغنا من الأكل وقامت. كانت ترتدى قميصاً خفيفاً على اللحم. ورأيت من تحت إبطها جانباً من ثديها عند انطلاقه من الصدر. ودهشت لأنه لم يكن متهدلاً. وكان أبيض كاللبن. وأدرت بصرى بسرعة. وتطلعت إلى عينيها الصريحتين المباشرتين. ودخلت هى لتنام: ونمت أنا أيضاً. وعندما قمت بحثت عنها

وذهبت إلى غرفتها. وكان السرير فى أقصى الغرفة. وكانت ترقد على ظهرها ومؤخرة رأسها ناحيتى وعينيها على الحائط المواجه لى، وطفلها جالس إلى جانب صدرها يتطلع حوله مدهوشاً من أثر النوم. وكانت ساقها عارية - بيضاء كاللبن - وغطتها بسرعة. وقامت وارتدت فستاناً برتقالياً. وجلسنا فى الشرفة. وقالت لى إن طفلها يحبنى. عشقت صوتها الهادئ الواثق وحركاتها التى لا تتكلف شيئاً. وقلت لها إنى أشعر أنى عجوز. نادراً ما ابتسم أو أضحك. كل الناس أراهم فى الشارع وفى المترو متجهمين دون ابتسام. ولأى شئ نفرح. وتكلمنا عن الكتب. وقالت إنها كفت عن القراءة منذ مدة، منذ أن جاء الطفل. وسألتهما: هل قرأت رواية الطاعون. وشعرت أن شيئاً كثيراً يتوقف على الإجابة. لكنها قالت: لا. وفكرت أن أقول لها إنى أحسدها على بساطتها ورقتها. وقلت أفعل هذا عندما نفترق. وتطلعت إلى الساعة. كان لا بد أن أذهب. ووقفت هى أيضاً. قلت لها فى صوت خافت: تعرفين؟ أنت غريبة حقاً. وتطلعت إلى دهشة. قلت: لقد اكتشفتك اليوم. وانحنيت على طفلها وانهمكت فى إصلاح ملابسه، ولم أر عينيها جيداً. وجاء زوجها. وودعتهما. وسارا فى أثرى إلى السلم. وعند باب الحديقة تطلعت خلفى. كانت تدخل المنزل الهادئ الرطب. وراقبت رداءها البرتقالى وهو يختفى خلف الباب. ومشيت إلى البيت. ورأيت فتاة حلوة تسير بجوار قضبان المترو فى بطة كأنما تجد صعوبة ما مع حذائها. ودخلت المنزل. ووجدت الغرفة الخشبية فى مدخله مضاءة وبابها مفتوحاً. واختلست النظر داخلها فوجدت حسنية صديقة أختى. وصعدت إلى غرفتى. وجاءت أختى. قلت لها: سامية لطيفة. وسألتهما: هل هى سعيدة مع زوجها؟ قالت: أجل. وقلت: أراهن أنها لا تحبه. قالت: مستحيل. أين ستجد رجلاً مثله فى الشخصية والمركز. وقالت إنهما كانا يتقابلان قبل الزواج.

وماذا لو كانا يتقابلان قبل الزواج.. كانت فى السابعة والعشرين.

وانتظرت فارس الأمل طويلاً دون جدوى.. وفي البيت لم تكن لها حجرة خاصة. كانت تنام في غرفة أشبه بالصالة. لم تغلق على نفسها باب غرفتها أبداً، وتتفرد بنفسها، وتخلع كل ملابسها مثلاً. لم تقبل جسمها أمام المرأة. ولم يعد من الممكن أن تحتمل نظرات أبيها وأما كل ليلة. لم يكن هناك من موضوع للحديث غير الزوج المنتظر. وتلام لأنها لم تستطع أن تحصل لنفسها على واحد. وذات ليلة التقت به عندي إحدى صديقاتها. وفي اليوم التالي قالت لها صديقتها إنه يريد أن يتزوجها. وبعد عشر دقائق من المسير حتى باب المنزل، وأمام باب المسكن الذي تأكل طلاؤه، قالت لصديقتها: ولم لا؟ ربما كان الحبيب الذي تنتظره. ربما لم يكن كل هذا الحديث عن الحب والتقاء الأعين ورعشة الأرواح غير كلام روايات. ربما وجدت السعادة معه. ربما. الكلمة المعلقة فوق كل زواج جديد. ربما كان هذا هو الرجل المنتظر. ربما جاء الحب. وبعد سنة واحدة جاء الطفل. ها قد تم تقييدها إلى الأبد. وليس أمامها إلا الاستسلام.. وتلك المرة التي كان الراديو دائراً فيها ولمحت نظرة ساهمة في عينيها، وقد اكتسى وجهها طابعاً حزيناً.. ماذا حدث بعد الزواج؟ وتصورتها بجوار بعضهما على الفراش. وأحدهما ملول ساخط. أحدهما سيظل طول عمره يشعر أن جانباً فيه لم يتحرك. أن جزءاً من لحمه ودمه لم يهتز. أن بئراً في أعماقه لم يكتشف.

قلت: هل تعرفين ما هو الحب؟ وتطلعت إلى بدھشة. كان سؤالاً سخيلاً وساذجاً. قالت: بالطبع. وقلت: هل تحبين خطيبك؟ قالت: أجل. وقالت: عندما خطبني لم أكن أظنّه ثم مع الزمن أحببته. وكان صوتها مرتفعاً. قلت لها: لماذا تزعتين؟ قالت: صوتي كده. وقالت إنها تريد أن تستحم، ولكنها لو فعلت سيتلف شعرها وتضطر للذهاب إلى الحلاق مرة أخرى. ودق الجرس. فحملت الدفتر وذهبت أفتح. لكنه كان خطيب أختي. وخلفه

جاءت صديقتة حسنية. وقالت حسنية لأختي: تصوري أن خطيبى يغير من خالى. وقالت: إنه يقول أنى أفضى الوقت كله مع خالى. وقال خطيب أختي إنه كان يبحث طول اليوم عن السخان. وإنه اشترى الثلاجة. وقال: هل يعرف أحدكم شخصاً مسافراً ليأتى لى بريكوردر. وجاء خال حسنية وأخذهم جميعاً إلى السينما. وبقيت بمفردى أمام المكتب. وحاولت أن أكتب. ودق الجرس، فأسرعت إلى الباب وأنا أتمنى أن يحدث شئ. أن يأتى أى أحد. ووجدت الكواء. ودق الجرس مرة أخرى. وعندما فتحت الباب فوجئت بنهاد وأبيها. ودخلا حجرتى على الفور. وقالا: لا بد أن تأتى عندنا غداً. وقلت لنهاد: لقد تغيرت كثيراً. فقالت باسمه فى رقة: آخر مرة رأيتنى فيها كنت صغيرة جداً. ورفضاً أن يجلسا وقالاً إن أمها تنتظر فى السيارة. وودعتهما إلى الخارج ثم عدت إلى حجرتى. وأخذت أمدخن فى شراهة وأنا أفكر ولا أستطيع الكتابة. كانت تتألمنى بدقة. وفكرت أنها سمعت عنى كثيراً ولا بد أنها مبهورة. ودق الجرس مرة ثالثة. وكانت الدقة طويلة قوية. وحملت الدفتر وذهبت إلى الباب ففتحته. وأعطيت الدفتر للعسكري ثم عدت إلى حجرتى وأطفأت النور واستلقيت على الفراش. ورحت فى النوم. ثم استيقظت فجأة على صوت الجرس. وعندما فتحت الباب لم أجد أحداً. وعدت إلى الحجره وتركت بابها مفتوحاً. ونمت من جديد. وقمت فى الصباح الباكر وحلقت نقتنى وارتديت ملابسى وحملت قميصاً نظيفاً إلى الكواء، وعدت فارتديته ثم نزلت. وأخذت أبحث عن مكان ألع فيه الحذاء. واشترت الصحف. وأخيراً ركبت المترو. وتوقف السائق فى الطريق ليضع قطعة أفيون فى فمه ويشرب الشاي. وفكرت أنه محظوظ. فقد وجد طريقة يستعين بها على مواجهة الحياة. ومضى يسوق فى بظء وأنا أتمنى أن يسرع كى لا أتأخر ويفسد الغبار أناقتى. ونزلت بعيداً عن البيت. وركبت تاكسى. وتوقفت به أمام البيت. وتطلعت إلى شرفاته فلم أجد أحداً بها. وصعدت إلى الطابق الأعلى ووجدت نهاد مع أمها أمام مائدة. ولم تشاهدنا التاكسى. وجلست بجوارهما. كانت

نهاد تذاكر. وتأملتها في دقة. كانت شفتها كما أتمنى. السفلى مقوسة وأسنانها بارزة قليلاً. وكان صوتها هادئاً رقيقاً. وسألتنى أمها عما أفعل الآن. وكانت تتكلم بصوت عال. قلت لها إنى أكتب. قالت: هل تكتب قصصاً؟ قلت نعم. قالت: من الكتب؟ قلت: لا، من رأسى. وقالت نهاد: إذن أنت شخصية. وأشعلت سيجارة. وقالت أمها: يجب أن تستقر. وقالت نهاد: أمريكا رائعة، ما رأيك؟ قلت: أعجب بأشياء وأشياء لا. وقالت: اترك كل هذا والتفت لنفسك. وقالت: ساعدنى فى المذاكرة. وكان صوتها خافتاً. وأنا قد تعبت من الأصوات العالية. وقالت: تصور ماذا فعلوا بأبى. طرده من شركته بعد أن أخذوها. وقالت إنهم تآمروا عليه واتهموه بأنه يتلاعب. وقالوا: نأكل. ونزلنا إلى الطابق الأسفل. وجلسنا إلى المائدة. وأخذت السلطة ثم الأرز فى طبقى. وسألتنى نهاد: ورك أم صدر. وكانت أختى قد حذرتنى وقالت حذار أن تأخذ الورك لأنك لن تعرف كيف تأكله بالشوكة والسكين. لكنى لم أدر كيف اندفعت وقلت لها أعطينى الورك. ووضعتة أمامى وأمسكت بالشوكة والسكين، وعندما غرزت فيه الشوكة قفز من صحنى فى الهواء وسقط فى إناء السلطة. وقالت نهاد بهدوء: الفراخ لا تؤكل هكذا، كلها بيديك. وقلت لها إن أختى حذرتنى لكنى لم أستمع إلى تحذيرها. وقالت الأم إنهم فى أوروبا يأكلون الورك بالشوكة والسكين. ولم أعرف كيف أكل بعد ذلك. وتعثرت فى المكرونة والبطيخ. وقالوا: أتعجبك الحال. وقال الأب إنه قابل ناساً قادمين من روسيا وإن الفقر هناك شديد. وقال إن الرأسمالية أفضل. وقالت نهاد فى حماس: هل يستطيع أحد أن يجادل فى هذا. وقالت: هل تؤمن برَبِّنا؟ وقمت وغسلت يدي وجففتها فى فوطة. وصعدنا إلى الطابق الأعلى. وقدموا لى السجائر لكن لم تكن لدى رغبة فى التدخين. وتحدث الأب فى التليفون. كان يريد أن يشتري الأرض المجاورة. ووضعت الأم يدها على خدها وسرحت. ودخل الأب لينام. وقالت نهاد: هل أنت متعب؟ قلت: لا. وعدنا نستأنف المذاكرة. وقام الأب من النوم وجاء فيسط سجادة

الصلاة أمامنا وصلى، ثم جلس بجوارنا وجاءوا بالشاى. وقال: كيف حال نهاد. قلت: كويس. وأداروا التليفزيون خلفنا بصوت عال. وجاءت الخادمة والطباخة والداداة وجلسن على الأرض يتفرجن. وكانت نهاد تغافلنى وتتابع الفيلم. وقالت: أحمد رمزى لذيذ. وبدأت أشعر بالتعب. وقامت وجلست بجوارى. وكان ساعدها عارياً بجوارى. وكانت حريصة على ألا نتلامس. وسمعتنى الأم أشرح لها كلمة إنجليزية، فقالت: لا، ليس هذا هو المعنى. وتدخل الأب ولم يكن يعرف غير الفرنسية. وقال إن الكلمة بالفرنسية لها معنى آخر. ولم أتكلم. واختلف الأب والأم. وطلبت منى الأم تأييدها. وقلت: غالباً هذا هو المعنى. وقال الأب: لا. ونظر إلى. فقلت: تقريباً. وأصبحت الضوضاء عنيفة. وقالت نهاد إن مخرجاً رآها فى الصباح وقال إنها تشبه لبنى عبد العزيز. ودخل بعض الزائرين. وقامت نهاد ترحب بهم وجلست بجوارهم فى نهاية الغرفة. وكانت تحدثهم فى حرارة وشوق ثم تغافلهم لتتابع أحمد رمزى. وأحسست بالصداع يحطم رأسى. وقمت لأنصرف. ونظرت إلى إحدى الزائرات متسائلة. وقلت: أنا ابن فلان. وضحكت وأشارت إلى أنفها وبرمت شارباً وهمياً ورفعته إلى أعلا. وقالت: أهو ذلك الذى كان بشارب ضخم؟ قلت: نعم. وصاحت الأم: أنا عاوزاك. وفكرت: هل ستحنى على وتعطينى خمسة جنيهات؟ وأشارت لى أن أتبعها إلى حجرتها. وكانت وصيفتها تجلس على مقعد. وهى فتاة سمراء ممتلئة. وقلت: هذه طبقتى. وفكرت أنى لو كلمت الأم لأمكن أن أتزوج هذه الفتاة. وسيقولون أنهم خدمونى ووجدوا لى زوجة طيبة على قدى. وناولتنى الأم لفافة ورق وقالت إنها قطعة قماش. ولم أعرف ماذا أقول. وكنت قررت أن أرفض لو أعطتنى نقوداً. ولم أحسب حساب القماش. وتضايقت ورفضت. لكنها أصرت وقالت: أنت مثل ابنى. ولم أعرف كيف أتصرف. فأخذتها وأنا أقول فى نفسى ها نحن قد كسبنا بذلة. وعدت إلى الصالة. ورافقتنى نهاد إلى السلم وخرجت من البيت. ولم أنظر إلى أعلى. ومشيت. وامتلاً حذائى بالغبار ولم أهتم وركبت القرو. وكان

الزحام رهيباً. وتكرمشت ملابسى. ولم أقاوم. وفى إحدى المحطات هجم على المترو عشرات من العمال العائدين إلى منازلهم. وشقوا طريقهم بين الزحام. ووقف أحدهم أمامى. وكانت عيناه محمرتين. واستند آخر على مسند مقعد، وسرح من النافذة. وبدأ ينام. وعندما تطلعت إليه بعد لحظة كانت رأسه تهتز مع حركة المترو وتصطم بالمسند كل مرة وهو غارق فى النوم. وعندما نزلت من المترو شاهدت نفس الفتاة التى رأيتها من قبل تسير بجوار قضيب المترو فى بطة. وصعدت إلى حجرتى. ووضعت المفتاح فى القفل. نفس الباب والمفتاح فى نفس الأسر التى من طبقتنا. ودخلت وخلعت ملابسى ووضعت البنطلون فى الشماعة وعلقتها على الحائط. ثم استحمت. وعدت فجلست أمام المكتب. وأدرت الترانزستور. ورأيت لفاة القماش أمامى ففتحتها. ووجدتها قماش بيجامة لا بذلة. وأشعلت سيجارة. وجاءت أختى وقالت: كم بقى من الخمسين قرشاً. حسبت المواصلات ولم أجسر على أن أذكر لها القروش العشرة أجرة التاكسى. وجاء خطيبها وقال إنه وقف ساعتين أمام الجمعية ليشتري اللحم وقال إن الحالة لا تطاق. وقال: أنتم تريدون أن تنشروا الفقر. وقال: ليست أمامى فرصة للثراء. لو كوّنت أى شئ ستأخذه الحكومة. وجاء عادل وزوجته. وقدمت له سيجارة فقال: أنا لا أدخن ولا أشرب القهوة. وقال إنه فى الصباح فقط يتناول فنجاناً من الشاي فى البيت. ومع ذلك يصل حسابه فى المكتب إلى ثلاثين قرشاً طلبات للآخرين. وقال إنه بعكس الموظفين الآخرين لا يرتشى. وقالت زوجته: خيبة. وقالت: إن العمال لم يعد أحد يعرف كيف يكلمهم. وقال عادل إن سائق خاله فهمى بيه لا يستيقظ قبل العاشرة صباحاً بينما يقوم فهمى بيه من فجر. وقال لخطيب أختى: سأدلك على أحسن مكان تشتري منه صبانة. وقال خطيبها إنه أوصى على ولاعة رونسون ستاتيه من بيروت. وقالوا: لا بد أن نذهب الآن. وانصرفوا، وظللت جالساً أمام المكتب أدخن. ثم قمت وأطفأت النور. ووقفت فى النافذة أتشمم الهواء. وكانت نافذتى تطل على مؤخرات عدة منازل. ولم يكن يبدو لى من الشارع

غير جانب صغير. وملت برأسى إلى الخارج، ولويت رقبتى لأرى المحلات المضاء والناس وهى تروح وتجئ. وتعبت فتراجعت برأسى إلى الوراء، وأسندت ساعدى إلى حافة النافذة. وكانت هناك نافذة مظلمة أمامى. وإذا بها تضاء فجأة. ومن خلالها ظهرت فتاة جعلت تخلع ملابسها ببطء. ووقفت أخيراً عارية تماماً. ثم ارتمت على سرير فى ركن الغرفة. ووقدت على وجهها وظهرها للضوء ورأيت استدارة جسمها والظلال الداكنة التى تركها الضوء فى ثناياها. وفجأة دق الجرس. فتناولت الدفتر وتلكأت قليلاً حتى أشعلت سيجارة وأخذت علبة السجائر معى. ودق الجرس مرة أخرى. وأسرعت إلى الباب. وفتحت للعسكري وأعطيته الدفتر وأنا أخرج علبة السجائر. وأعطيته سيجارة. وانصرف. وعدت إلى الحجره فألقيت الدفتر على المكتب وتطلعت إلى النافذة المقابلة فألفيتها مظلمة. استلقيت على الفراش أدخن حتى انتهت السيجارة. فقذفت بها من النافذة ونمت. وفى الصباح خرجت واشترت الجرنال وزجاجة لبن صغيرة وخبزاً. وعدت فغليت اللبن ووضعت فيه السكر ثم غمست الخبر فى اللبن. وقرأت الجرنال. ثم خرجت. وركبت المترو. وتوقف المترو قبل محطة الإسعاف. ونزل الركاب. ووجدت عرباته مقلوبة على جانبها بجوار القضبان، وقد برزت أحشاؤها الداخلية السوداء. وسرت إلى المقهى الذى يجلس فيه مجدى. وكان يجلس فى ركن بمفرده. وقال: يجب أن نثبت وجودنا. وتاملت التجاعيد التى حفرت خطوطها فى كل مكان بوجهه. وقال: الجميع أولاد كلاب. وقال: أنت قوى بالناس. أما بمفردك فأنت ضعيف. وتقلصت عضلات وجهه.

فإذا نظرت إليه لا تعرف ما إذا كان يحقد أم يتألم. وهل يوجد إنسان لا يحقد ولا يتألم؟ من الرغبة فى السيطرة ومن الضعف فى مواجهة العالم. من الافتقاد للحب ومن العجز عنه. من احتقار الناس ومن الحاجة إليهم. من الإحساس بالقهر ومن ممارسة الاضطهاد. من معاناة الأكم ومن الاستمتاع بإيلام الآخرين.

من الثقة الكاملة ومن الشعور بالفشل. من التغنى بحب الناس ومن استغلالهم كقطع من الطوب تبني بها بيتك. من الاعتقاد بأن الجميع يحبوك ويؤمنون بك، ومن رؤيتهم يتخلون عنك .. وكان الأمر في البداية نبلا وأصبح الآن لعنة. وجف النبع الذي كان يتألم للآخرين .. وعندما وقف وظهره يقطر دماء كان صامداً لا يهتز، يستعذب قدرته على الصمود. لكن الناس لم تعد تعبأ بهذا اليوم، فقد تغيرت روح العصر. وليس صدفة أن الكلمات التي يستخدمها قد تغير مدلولها منذ زمن، وبعضها كاد يصبح بلا مدلول على الإطلاق .. وكان مشتركاً في اللعبة ويفهم قواعدها ويسير عليها. لكنهم طبقوا القواعد عليه، وسالت الدموع على مقعد وحيد. وأقطع شئ أن تبدأ في البحث عن نفسك متأخراً .. وقال إنه لم يحب أبداً. وهو يؤمن بأنه أفضل من الآخرين - وربما كان ولا يجد ما يمنع من ذلك وقد قدم كل شئ لديه - لكنه مهزوم في لعبة لا تعرف الرحمة وليس لها في الحقيقة أية قواعد. ولا يمكنك فيها أن تقرر الصبح من الخطأ، وليس المنتصر هو المصيب بالضرورة، إنما هو أدهم وأمكر وأكثر حظاً.

تركته وذهبت إلى المجلة. وسرت في ممر طويل وأنا أنظر في كل غرفة ولا أجد أحداً. وكانت هناك غرفة أمامي في نهاية الممر. وعندما اقتربت منها رأيت امرأة تجلس إلى مكتب وقد أسندت خدها إلى يدها. ولمحت دموعاً في عينيها. واستدرت عائداً من حيث جئت. وسرت في اتجاه المترو ثم ركبته. وجلست بجوار النافذة. وعندما تركنا ميدان رمسيس سار بجوارنا قطار في نفس الاتجاه. وكان ممتلئاً بالجنود العائدين من اليمن. وكانوا يهللون من النوافذ ويهتفون ويلوحون بأيديهم. وعندما أصبح المترو في حذائهم، ازداد حماسهم وهم يتطلعون إلى ركابه. وتأملهم هؤلاء في جمود ولا مبالاة. وشيئاً فشيئاً هبط حماس الجنود. وكان المترو قد سبق القطار الآن. وأدرت رأسي إلى الخلف. كانت أيدي

الجنود تتدلى من نوافذ القطار. ولمحت أحدهم يرمى بغطاء رأسه إلى الأرض. ونزلت أمام البيت ورأيت الفتاة الجميلة التي تسيّر بجوار قضيب المترو كل يوم. واكتشفت أنها عرجاء. واشترت طعاماً وصعدت السلم. ووجدت باب الشقة مفتوحاً وجارى فيها يصلح قفل باب غرفته. دخلت وأكلت، ثم دخنت ونمت، وقمت لأجد أختي قد جاءت. ودخلت الحمام وخلعت ملابسى وفتحت الدش على جسمي. وسمعت صوت مقبض باب يقع على البلاط. وأغلقت الدش وجففت جسمي وارديت ملابسى ثم خرجت من الحمام. وكان هناك قرع مستمر على شئ ما. ووقفت أتكلم مع أختي وأنا أمشط شعري. وسمعت القرع مرة أخرى. وتبينت فيه قرعاً على الجدار. وقلت لها إننا كنا نفعّل هذا دائماً عندما نريد أن نكلم بعضنا أو نحذر بعضنا.

وكان ذلك يحدث كل صباح. ونفتح عيوننا على صوت القرع الرتيب على الجدران ونهب واقفين ونحن نرتب كل شئ ونحاول أن نتذكر حتى لا ننسى شيئاً، ولا زال النوم في عيوننا. ثم نجلس القرفصاء بجوار الحائط ونحن نرتجف من البرد. ويسكت القرع. وننتظر. ثم نسمع صوت أقدامهم على البلاط وشخشخة السلاسل والمفاتيح. ونقفز في أماكننا عندما يصطدم المفتاح بالقفل. ثم يدخلون. وتلتصق عيوننا بعيون جامدة لا تتطق. وتصطدم آذاننا بأصوات سريعة باثرة لا تتمهل. وتتعلق قلوبنا بأيدي سميئة ثقيلة لا تفكر. وحولنا الجدران تلتقي في أربعة أركان. والباب مغلق. والسقف قريب. لا منجاة.

خرجت إلى الصالة. وحانت منى نظرة إلى حجرة جاري. كان بابها الزجاجي مغلقاً. ولمحت ظله من وراء الزجاج ويده تخبط عليه بعنف. ووجدت مفتاح الباب ملقى على الأرض. تناولت المفتاح ووضعت في الباب وفتحته له. وقال لي وهو يبكي إنه نسي المفتاح عندما دخل وأنه يخبط لي منذ ساعة. وقالت أختي يجب أن تزور حسنية وسترى

خطيبها. وذهبتا، ورحبت أمها بي وقالت يجب أن تستقر. وقالت لأختي: زوجيه وهو يهدأ. وجاء خطيب حسنية وقال إنه نظم مكتبه في الوزارة تنظيماً رائعاً. فهناك لوح من الزجاج السميك يغطيه. وعلى اليمين أجندة فخمة من الخارج. وفي الوسط محبرة من العاج لا يوجد مثيل لها الآن. وإلى اليسار بعض الملفات العاجلة. وفوق رأسه علق لفظ الجلالة. وقلت إن الشمس أوشكت أن تختفي ويجب أن أنصرف. وتركتهم وأسرعته إلى المنزل. وقابلت العسكري على السلم. وقال: تأخرت. وأخرجت علبة السجائر لكنه هز رأسه وقال: من الممكن أن تقضى هذه الليلة في الحبس. وأخرجت عشرة قروش. وصحبني إلى الشقة فدخلت وأحضرت الدفتر. ووقع فيه وانصرف. وخلعت ملابسى فى بطة. وغسلت وجهى، ثم أعددت فنجاناً من القهوة. ورتبت المكتب ومسحت الغبار الذى تراكم فوقه. وأمسكت القلم لكنى لم أستطيع أن أكتب. وتناولت إحدى المجلات. وكان بها مقال عن الأدب وما يجب أن يكتب. وقال الكاتب إن موبايان قال إن الفنان يجب أن يخلق علماً أكثر جمالاً وبساطة من عالنا. وقال إن الأدب يجب أن يكون متفانلاً نابضاً بأجمل المشاعر. وقمت واقفاً وذهبت إلى النافذة وتطلعت إلى نافذة الأمس. لكنها كانت مغلقة. وعدت أجلس إلى المكتب. وأمسكت بالقلم. لكنى لم أستطع الكتابة. وأغمضت عيني. تصورت فتاة الأمس بجسمها الأبيض أمامى على الفراش، ممتلئة وشعرها طازج، وأنا أقبل كل جزء منها. وأمر بخدى على فخذا وأسندته إلى نهدها. وامتدت يدي إلى ساقى. وجعلت أعبت بجسمى. وأخيراً تنهدت. وارتميت على مقعدى متعباً وأنا أحرق فى الورقة بنظرة فارغة. وبعد قليل قمت وعبرت فى حذر فوق الآثار التى تركتها على البلاط أسفل المقعد. وذهبت إلى الحمام وغسلت جواربى وقميصى وعلقتها فى النافذة. وأطفأت النور بعد أن تركت باب الحجر مفتوحاً لأسمع العسكري عندما يأتى. وأشعلت سيجارة وتمددت على السرير. ونمت. وفى الصباح ذهبت إلى منزل أختي. وكانت التجاعيد قد زحفت على وجهه وامتلاً جلده ببقع بيضاء.

وقال: تلف كل شئ منذ أصبح العمال فى مجالس الإدارات. وقالوا نصعد إلى الطابق الأعلى لنرى ابنته الكبرى.

وكان أختي قد بنى الفيلا منذ خمس عشرة سنة. وقال إن زوجته هى التى اشترت الأرض، وكانت أول مرة يعلم أن معها نقوداً. وكان أبى وقتها حياً. وكان يأتى كل يوم ليراقب البناء. وكنا نسكن فى حجرة ضيقة. وأكمل أختى البناء، وأجر الدور الأول وسكن فى الثانى. ثم زوج ابنته الكبرى وأجر لها الدور الثالث. وعندما تزوجت ابنته الصغرى أخلى الدور الأول وأجره لها. وظل فى الوسط مع زوجته. وفى البداية كان يقضى ساعة كل يوم فى الحديقة يقص أعشابها وهو يدخن البايب.

وسألتنى عما إذا كنت أقرأ لزوجها. وقال زوجها إن الشيخ عبد الباسط قال له إن الصلاة فى المسجد الأقصى تحسب بألف ثواب. وقالوا ننزل إلى الطابق الأسفل لنرى الابنة الصغرى. واستقبلتنا على الباب وهى تحمل طفلها على ساعديها. وكانت عيناه قريبتين من بعضهما. وقالت: أليس ابني جميلاً؟ وضحكت، ومدت فى ضحكتها لتشير لزوجها. وكان يقف بجوارها وهو يداعب نجوم بذلته العسكرية بأصابعه. وقال إن العسكري إذا فتح فمه لطمه على وجهه فيصمت. وقال: آن لك أن تتزوج. وقال: افعل مثلى. المهم فى البنت هو الأصل. وأداروا التليفزيون. واعتدل أختى فى عباته وابتسم وقال: شوفوا هذا الفيلم. وكان يروى قصة فتاة تركت شاباً فى سنها وأحبت كهلاً. وعندما انتهى الفيلم تطلع أختى إلينا مزهواً. وأخذنى إلى حجرته. وأغلق الباب، ثم أخرج عدة ملفات قديمة. وجلس إلى المكتب وأشعل البايب. وأرانى قصصاً كتبها وقصصاً ترجمها. ومقالات بعنوان "لك يا سيدتى" وكتاباً له عن بناء الأجسام وآخر عن معارك الحرب العالمية الثانية، وثالث عن الأمير عمر طوسون. وصورة قديمة له بالقبعة والبايب فى حديقة منزل. وصورة أخرى مع فتاة ألمانية.

وقال إن ذلك كان في أيام اقتراب روميل من الإسكندرية، وكان قد بدأ يتعلم الألمانية. وأراني صورة ثالثة في مكتب شركة أمريكية. وصورة رابعة في شركة استيراد مصرية. وقال: نفسى فى فتاة صغيرة. وقال إنه لم يحب أبداً. وقال إنه بالأمس أراد أن ينام مع زوجته، لكنها رفضت لأنه كان قد جعلها تشتري الفاكهة من نقودها وعندما أعطها جنيهين فتحت له ساعديها. وجمع الأوراق المصورة وأعادها إلى ملفاتها. وقال: أنا الآن انتهيت. سأربى أرناب. ونادوا علينا لنأكل. ثم خرجت وذهبت إلى المجلة وقابلت سرى. وقال لى إنه يريد أن يساعدنى لكن الظروف لا تمكنه. وقال: هل قرأت مقالاتي؟ أنا الوحيد الذى يكتب هكذا الآن. وقال: فؤاد رجل تافه، تصور أنه قال عنى أنى تلميذه. وتركته وذهبت إلى حجرة سامى فى آخر المر. وفى هذه المرة وجدته. وقال لى: ليست عندى أى فكرة عما كتبت. ووقفت بجوار مكتبه وهو يكتب. ورفع رأسه إلى فجأة وقال: مانعلكش. مُر على بعد يومين. وخرجت إلى الشارع. ومشيت إلى المترو. ورأيت فتاة رائعة الجمال من زجاج شركة الطيران. وركبت المترو إلى البيت ولم أجد مقعداً خالياً لى. ووقفت أتأمل الناس من حولى. وفى حجرة السيدات لمحت جانباً من وجه امرأة. كانت تطل من النافذة. وكانت ترتدى فستاناً أبيض بغير أكمام. وتبدو نظيفة جداً. ولا شك أنها استحمت قبل أن تخرج. وكان شعرها طويلاً ناعماً، ولا يمكن أن تكون قد فردته عند الحلاق. ولمحت بجوارها طفلة. واضطرب صدرى عندما تحولت بوجهها كله ناحيتى ورأيت سمارها الخمرى. وكان وجهها بلا كحل أو أصباغ. وألفيت نفسى فجأة فى مواجهة عينيها. كانتا واسعتين صافيتين. وللحظة ضعت.

كانت عيناها نجمتين فى فضاء ساكن. وكنت سابحاً فى الفضاء، ضائعاً. وكان بالليل عندما التقت عيوننا. وكانت عيناها تلمعان فى الضوء. رأيت صورتي فى بياضهما الواسع ورأيتها فى سوادهما العميق. وكان ساعدها عارياً بجوارى. وبشرتها مشربة بالحمرة وتبدو ساخنة. واشتقت أن أمد أصبعى وأمس ساعدها

عند استدارته الممثلة قبل الكتف. وكانت بلوزتها بيضاء خفيفة. ولم تكن ترتدى مشدأ. فقد كنت أرى نقطتى ثديها على البلوزة. فى المكان الذى تستريحان فيه على الحرير. وكانت بشرة وجهها ناعمة. وشفاتها ممثلتين. والسفلى دائماً منفصلة قليلاً عن العليا ومقوسة، داكنة اللون كأنها ملتبهة من شئ ما. وعندما كانت تنظر إلى وتبتسم، كانت نظرتها تتعلق بى وأحار. وعندما احتضنتها أول مرة سكنت لحظة ثم أبعدتني عنها. وكنا نجلس فى الظلام. ثم مدت يدها إلى رأسى وجعلت تعيثر بشعرى. ثم تسللت يدها إلى حافة قميصى، ثم ظهري، وجعلت تتحسسها بكفها. عندئذ احتضنتها ودفنت رأسى فى رقبتها، واستمتعت لحظة بنعومة جلدتها على خدى وجعلت أنتشم رائحتها النظيفة. ثم رفعت رأسى قليلاً وقبلتها فى فمها. ودخت. وعندما أردت أن أعيد الكرة دفعتني عنها. وتعلمت أن أكتشف فيها أشياء أخرى. عندما ترم شفتيها وتركن إلى الصمت مهما حدث، وأكاد أجن لأعرف لماذا، وعندما تبدو أحياناً رقيقة حانية وأعبدها. وعندما أجلس أمامها وعينى على وجهها ويديها وساقها وأكاد أبكى من الرغبة. وعرفت الألم عندما كنت أنظر إلى عينيها اللامعتين وخديها الشهيين. وعندما كانت أصابعى تتسلل إلى ساعديها وساقى تقترب من ساقها وترفضنى. وفى آخر مرة كنت سأجن. كنت قد بدأت أوقن. وأخذتني بين ساعديها. وسمحت لى أن أتحسس صدرها ويديها وأقبل خديها وشفتيها، لكنها كانت باردة.

لكنها لم تلبث أن حولت عينيها بعيداً. ولم تلتفت نحوى أبداً بعد ذلك. ونزلت أمام البيت واشترت طعاماً. ودخلت المنزل. ووجدت الحجرة الخشبية التى يستخدمها خال حسنية مضاءة. وبابها مفتوحاً وعندما نظرت خلاله وجدته معتمداً برأسه على كفيه يتأمل صورة فتاة فى إطار مذهب على مائدة صغيرة أمامه. وكانت الصورة لحسنية. وكانت

عينها فى الصورة واسعتين رائعتين. وابتعدت قبل أن يحس بى. وصعدت إلى غرفتى. وخلعت ملابسى. وأدرت الترانزيستور، فلم أجد أغانى أو موسيقى وجعل يخروش. وجلست أحاول الكتابة. وعلى الأرض ظهرت بقع سوداء من أثر لذتى. وجاء حسن وقلت له لا بد أن نأتى بامرأة الليلة. وقال سأحاول. وخرج. وعاد بعد نصف ساعة. وقال: أخى على السلم ومعه فتاة. وقال: اختف قليلاً لأننا قلنا لها إننا اثنان فقط. وقال: لا تخش شيئاً فلن تستطيع أن ترفضك ما دامت ستأخذ الثمن. وذهبت إلى المطبخ وأعدت الشاى. وجاء حسن. وقال إن شقيقه والفتاة فى حجرتى الآن. وحملت الشاى إلى الصالة ووضعه على المائدة. وجلست بجوار المائدة. وأشعل حسن سيجارة وجعل ينقر بأصابعه على المائدة. وفتح باب الحجرة بعد قليل وخرج أخوه، وصافحته ولم أكن رأيت من قبل. وكان ضخماً فى الأربعين. ودخل حسن الحجرة. وقدمت الشاى لأخيه. وقال لى: كيف الحال؟ قلت: عال. وقلت وأنا أشير بأصبعى إلى الحجرة: كيف هى؟ وهز كتفه وقال: لا بأس. وقال: لقد طفنا بكل الشوارع بالسيارة لكننا لم نجد غيرها لأن الوقت متأخر. وخرج حسن وقال لى: دورك. وأخذته جانباً وقلت له: لن أستطيع. ونظر إلى بدهشة: كيف؟ قلت: لا أدرى. ليست لى رغبة. وهزنى وقال: لكن يجب أن تدخل. هذه مسألة مهمة. وقلت له إنى أدرك ذلك لكنى لا أستطيع. قال: تعال. ودفعنى نحو الباب. ودخلت. أغلقت الباب ورائى. وقال لى أخوه من وراء الباب: الجراب على المكتب. أشعلت سيجارة وقدمت لها واحدة. وكانت جالسة على السرير بملابسها الداخلية. وكانت ترتدى قميصاً مخروماً رخيصاً، بمبى اللون، مثل قماش أبيض غمس فى الدم ثم غسل عدة مرات فاحتفظ بلون الدم الباهت. وكانت ساقاها عاريتين. وعلى المكتب استقر فستانها مطبقاً فى عناية. وقالت: لا أريد أن أدخن. هيا بنا. وقلت: نشرب السيجارة أولاً. ما اسمك. وقالت: أريد أن أنتهى. ومدت يدها إلى ساقى وفككت زرار البنطلون. ونحيت يدها ببطء. وقلت: نامى معى الليلة وانصرفى فى الصباح. وضحكت:

كده. وجذبتنى نحوها وحاولت أن تقبلنى، ونحيت فمى عن وجهها. وقمت واقفاً. وخلعت بنطلونى وسروالى الداخلى. وتناولت الجراب وجعلت أرتديه. لكنه تمزق. بحثت عن واحد آخر فوق المكتب، فلم أجد. وقالت الفتاة: أنا نظيفة. وفتحت الباب وناديت على شقيق حسن وقلت: أريداً واحداً. وأعطانى واحداً من جيبه. ولبسته وارتميت فوقها. وحاولت أن تقبلنى فأبعدت وجهى. وقمت أخيراً وارتميت ملابسى. وأخذاها وخرجوا. وبقيت جالساً. وأشعلت سيجارة. وجاء رمزى وقلت له إنى لم أستطع أن أنام مع الفتاة، وسخر منى. فقد استطاع هو. قابل فتاة فى الشارع واصطحبها إلى البيت. وأطفأ النور. وظل معها عشر دقائق. ثم أعطاها خمسة وعشرين قرشاً. وتطلع بعدها إلى وجهه فى المرآة فوجده أحمر. وقال إنه لا يوجد شئ يساوى أى شئ. وانصرف. وجاء العسكرى بعد قليل. وأطفأت النور. ونمت. وفى الصباح خرجت، وأفطرت فى الشارع ولم أشتر الجرائد. وعدت إلى الحجرة. وقالت أختى إن عمى عاد من الإسكندرية وإنه مريض جداً ولا بد أن أذهب لاستقباله. وخرجت وركبت المترو إلى المحطة. ونزلت من المترو وعبرت الميدان، ثم سور المحطة الخارجى. وعلى الرصيف وجدته يقف. وكانت حالته عادية وزوجته إلى جانبه تحمل شمسية فى يدها. وأسرع أولاده يحضرون تاكسياً، وركبوا وقالوا لى أن ألحق بهم فى المنزل. وركبت المترو وذهبت إلى منزلهم، ووجدته جالساً على كنبه مرتدياً بيجامته. وبدا جسمه صغيراً قد انكمش عن ذى قبل. وتأملت كتفيه اللذين تضاءلا فى فانلته، وعينييه الصغيرتين اللتين أوشكتا أن تختفيا خلف نظارته السميكه. وكان بنطلون البيجامه ملوثاً ببقعة صفراء كبيرة فوق الكيس الضخم بين ساقيه. وقال إن كل شئ بدأ فجأة برعشة وسخونة. واستدعوا الطبيب فقال إنه لا يوجد شئ البتة. وقال إن الحرارة ارتفعت فى المساء وظن أنه سيموت، وأرسل إلى الطبيب على الفور، فجاء وقال له: تأكل مسلوقة وتحلل. وقال عمى إنه نفذ أوامر الطبيب يوماً واحداً فقط. وفى اليوم التالى قال لهم أكل فرخة. وقمنا لنأكل، وأقبل على اللحم

يلتهمه في شراهة. وقال: أعطوني من الكبدية. وتركتهم وخرجت. وركبت إلى منزل ابنة عمتي. وقلت إنني سأعرف المنزل من نوافذه الزرقاء. لكنني عندما اقتربت منه اكتشفت أنها ليست كما كنت أتخيل. كان الزجاج عادياً بغير لون. إنما السماء هي التي كانت تعطيه زرقته أحياناً. وكانت الواحه مشروخة. وواجهة المنزل صفراء متسخة. وكان باب الحديدية مفتوحاً ومائلاً على الحائط. والحديقة نفسها مهجورة، والبلاط الملون في ممراتها قد اقتلع في أكثر من مكان. وسرت في الممر المؤدى إلى باب البيت. وكان هناك براز كلب بجوار الحائط. وصعدت السلم الذي تأكلت درجاته. وطرقت الباب. وفتحت لي ابنة عمتي. ولم أعرفها في مبدأ الأمر. فقد كان شعرها منكوشاً تتخلله خصل رمادية كثيرة. وكانت عيناها منطفتين، وجلد وجهها بنياً. وفي الصالة رأيت الحجرة القبلية. ومشيت إليها وقلت لها: أين مكنة الخياطة التي كنت تضعينها هنا؟ وقالت: ألا زلت تذكر؟

أجل، لا زلت. كان ذلك في الشتاء. بعد الغداء. وفي الحجرة البحرية جلس أبي مع عمتي خلف زجاج الفراندة يرقبان القصر. وذهبت إليه وأردت أن أجلس على ساقيه. لكنه نحاني عنه قائلاً أنني لم أعد صغيراً. وغادرت الحجرة إلى الصالة. وعبرتها إلى حجرة ابنة عمتي. وكانت تجلس أمام مكنة الخياطة. وجلست أرقبها وهي تدير المكنة بساقها. وقالت لي: تصور .. انقطع الخيط من أول دورة. إنه شيطان الذي ركب هذه المكنة. وانحنت على المكنة بعد أن رمقتني بنظرة سريعة. وحولت بصرى إلى النافذة وأنا أشعر بأذني ساخنتين وكنت لا أزال أرى وجهها الأبيض الرقيق والحمرة الشاحبة على خدها وأنا أتطلع إلى النافذة المغلقة. الزجاج فقط هو الذي كان مغلقاً، ومن خلفه ظهرت السماء، وخلاله تدفقت أشعة الشمس الباهتة ... وتحت في الحديقة كانت أشعة الشمس تضئ فوهة البئر السوداء. وبعد ساعة سيأتي الصبية وأنزل معهم ونرفع الماء بالمضخة. وسنسرَق

الزهور ونهز شجر المانجو بلا فائدة. ونجرت في البدروم والسرديب. وهذه المرة سأختبئ منهم في الحجرة المتطرفة التي تفتح في رمضان ليقرأ فيها المشايخ كل ليلة. وعندما ننصرف بالليل ستودعنا عمتي إلى الباب، وتضئ نور السلم، ونهبط درجاته البيضاء العريضة، ونخرج إلى الممر، ونمضي فوق بلاطه الملون. ثم نفتح باب الحديدية فينز، ثم نغلقه تماماً، وننطلق إلى الشارع العريض الهادئ بلا صوت. وعندئذ أجمع إلياسمين من أسوار الحدائق .. وقالت صديقة ابنة عمتي شيئاً. كانت تقف على مقربة أمام مرآة الدولاب وهي تمس شفيتها بإصبع الروع. لكنني لم أنظر ناحيتها. كانت طويلة وعيناها خضراوين. ولم تخاطبني إلا بكلمة واحدة: إزيك، قالتها عندما دخلت الغرفة. ثم وجهت كل اهتمامها إلى ابنة عمي. لكن ابنة عمتي كانت تكلمني أنا عندما قالت: تصور. كان دولابها الصغير خلفي، تعلق مصراعيه الخشبيتين مرأتان بيضاوان كالعينين. وتدلني من منتصفه عند ثقب المفتاح مطرقة صغيرة من النحاس تحدث رنيناً جميلاً عند فتح الدولاب. وفي داخل الدولاب أدراج مغلقة. ودون أن أحرك عيني عن النافذة استطعت أن أرى أصابعها تلمس مقبض المكنة في خفة، فتدور العجلة في ضجة. وانحنت تتابع حركة القماش تحت الإبرة فسقطت ضفیرتها على صدرها. وقالت لها صديقتها: ألن تنتهي أبداً. تأخرنا. ورفعت ابنة عمتي رأسها والتفت عيناها بعيني وهي تتطلع إلى صديقتها وقالت: خلاص آخر خط. وأغمضت عيني. وسمعت بعد برهة رنين مطرقة النحاس الصغيرة.

وجاءت أختي وقالت: المجارى في البلد طافحة. ودخل قريب عجوز لابنة عمتي. وكان يلهث في قوة. ولم يكن يرى جيداً من خلف نظارته. وتجهم وجه ابنة عمتي. وقال العجوز: أعطني شلناً بعدما أشرب القهوة. وخلع طربوشه ووضعه بجواره على الكنبة

شرب القهوة وظل جالساً. ودخلت ابنة عمتي حجرتها ثم عادت وسألتني إذا كانت معي فكة. ولم تكن معي فكة. وأرسلوا الطباخ ليفك عشرة قروش إلى شلنين. وجلسنا ننتظره صامتين حتى عاد. وأعطت ابنة عمتي الشلن للعجوز، فقام وارتدى طربوشه وسلم علينا وخرج. وقالت ابنة عمتي: هذا العجوز ماكر. يلهث فقط عندما يدخل علينا. وقالت أختي إنه يقيم مع ابنه المتزوج. وإن زوجة الابن تحرض أطفالها على تمزيق ملابسه وإخفاء حذائه، وتترك غرفته قدرة. وقالت ابنة عمتي: سيشرّب بالشلن خمراً. وقالت أختي: عندما يذهب إلى ابنته تتركه في الصالة وتدخل حجرتها وتغلق الباب عليها. وقالت ابنة عمتي إنه يقضى النهار كله في الخارج يشرب الخمر ويدور على أقاربه يشحذ منهم.

في نفس هذه الصالة منذ أعوام بعيدة كانت عمتي تجلس على الكنبية بطرحتها البيضاء وهي تدخن. ويجوارها أبي لا زال يلهث من السلم والحر وهو يجفف بمنديله رأسه الأصلع الذي ينور به شعر أبيض. وجاء الطباخ وأخرجت عمتي كيس نقودها وأعطته جنيهاً. وانصرف الطباخ. وقال لها أبي شيئاً، فهزت رأسها بالرفض.. وقام أبي فعبر الصالة إلى الحجرة البحرية وخرج إلى الفراندة وجعل يدخن.

وقالت أختي إن نهاد خطبت إلى مدير في القطاع العام. ورويت لابنة عمتي كيف سألتني قريبة نهاد عما إذا كنت ابن أبي الشوارب الواقعة، وضحكنا. وقالت أختي إن جدة نهاد مريضة وإنهم لا يطيقونها. وقالت ابنة عمتي: قبل أن تموت أمي ظلت شهوراً في الفراش لا تغادره، وكانت تتبول فيه. وقالت أختي إن زوجة ابن عمي سقطت في شهرها السادس. وقلت: هذا أحسن لها. وغضبت أختي واتهمتنى بأني لا أحس. وقالت إنى الوحيد الذي لن يتمكن من حضور زواجها لأنه سيكون بعد الغروب. وقالت إن صديقتها حسنية ستتزوج بعدها بأسبوع، وسيعود خالها إلى منزله. وقالت إن خال حسنية كان يقيم عندها

طول الوقت بعد أن هجر امرأته. وقالت إن امرأته لا تخلع السواد أبداً، وإنه يقول أن ملابسها الداخلية كلها سوداء. واقترب مني كلب ابنة عمتي وهو يهز رأسه. ومددت يدي أذاعبه فنام على ظهره في الحال وانثال بوله في الأرض. وقال إنه أصبح هكذا أخيراً. فما أن ينام هكذا على ظهره حتى يببول. وانصرفت إلى حجرتي. وخلعت ملابسني. وأعددت كوباً من الشاي. وجلست أقرأ في كتاب عن فان جوخ. ولا بد من أنى غفوت. فقد رأيت أنى التقيت بأبي. وكان يبدو متعباً. وجلس متربعاً على سريريه، متجهماً. ولم أعرف ماذا أقول له وأنا لى مدة لم أحاول أن أراه. كان موجوداً طول الوقت ولم أفكر في الذهاب إليه. واستيقظت على صوت جرس الباب. وقمت أفتح. وكان العسكري. فعدت أحضر الدفتر ووقع وانصرف. وعدت إلى الحجرة فأطفأت النور وأشعلت سيجارة، واستلقيت على السرير أفكر في أبي.

كان ذلك بالليل. وكان أبي يصرخ من الألم. وكنت أريد أن أنام. وعندما أخذوه إلى المستشفى بقيت بمفردي في البيت. وكنت سعيداً. وعندما ذهبت إليه اصطدمت بعينييه. وكانتا واسعتين جزعتين. وسألني لماذا تأخرت. ولم يكلمني بعد ذلك أبداً. وقال: أقرأ لي. وجلست بجواره على مقعد. وأعطاني ظهره. وأمسكت بمجلة وقرأت له. وبعد لحظة ملت عليه لأرى عينييه. وكانتا مغلقتين. فتوقفت عن القراءة. لكنه فتح عينييه وقال: لم أنته بعد. وعدت أقرأ. وأخيراً قال: يكفى هذا. يمكنك أن تتصرف. وخرجت مسرعاً وأنا أتنفس الصعداء. وبعدئذ لم يطلب مني شيئاً. ولم أر الرعب الذي كان في عينييه. وعندما أعاده إلى البيت حملوه من السيارة إلى السرير. وفي بيت أختي استبدلو أغطية المقاعد بأخرى داكنة، ولم أفهم. وعندما أخرج دماء من فمه نزل أختي يبحث عن وعاء. وعاد ينهج ويقول: نخت ولفيت. وارتمى على الكنبية يلهث وهو يتطلع إلينا. وأخيراً رقد أبي على

ظهره فى صورة مستقيمة، وغطوا جسده كله ووجهه بملاءة بيضاء وساووا جسده وقالوا إنه لم يسأل عنى. ورفعت الملاءة عن وجهه ولكن عينيه كانتا مغلقتين. ونمت. وفى الصباح ذهبت إلى الشقة الجديدة التى ستنقل إليها أختى فى المساء. كان البيت كله جديداً لا زال العمل يجرى فى بعض طوابقه. ووجدت باب الشقة مفتوحاً وخطيب أختى يقف أمامه. وصحبني إلى الداخل. وعبرنا الصالة إلى حجرة الصالون. وأراني صورة كبيرة على الحائط لبيت أوروبى على شاطئ وأمامه قارب. وقال بزهو: إنها رسم أختى. ثم انتقلنا إلى حجرة النوم. وفتحنا أبواب الدولاب الأربعة. وجلسنا على السرير واهتزنا فوقه، وتحسسنا أعظيته ووسائده بأيدينا. ثم خرجنا إلى الصالة وفتحنا الثلاجة ثم أغلقناها. وقادني إلى الباب وأشار إلى مصباح فوقه وقال: بمجرد أن أفتح الباب يضى هذا المصباح من تلقاء نفسه، ثم ينطفئ عندما أغلقه. وقال: انتظرني هنا حتى أذهب وأجئ بالسخان والفرن. وخرج. وجلست فى الصالة المظلمة وأشعلت سيجارة. وقمت وضغطت على زر النور. لكن الكهرباء لم يكن قد تم توصيلها بعد. وتأملت غطاء المصباح الذى كان على شكل قمر صناعي. وعدت فجلست إلى المائدة وجعلت أدخن وأنا أتأمل حواف مقاعدها اللامعة بلا أى خدوش. ووصل السخان بعد قليل لكن خطيب أختى لم يأت. انتظرته مدة أخرى وأنا أدخن. ثم قمت إلى النافذة. ووجدت الشمس تغيب. ثم رأيته يسير فى الشارع بمفرده فى اتجاه المنزل. ولم يكن هناك أحد غيره فى الشارع. وصعد بعد قليل. وصافحته قائلاً: مبروك. وغادرت المنزل إلى حجرتي. فأضأت نورها. ووضعت الدفتر فى جيبي. وجلست فى مقعد وظهري إلى الباب. وأمسكت بكتاب. وبعد قليل قمت وأدريت المقعد بحيث يكون الباب أمامي. وعاودت القراءة. وبعد لحظة تطلعت إلى الباب من فوق حافة الكتاب. وكانت الشقة غارقة فى الظلام. وحاولت عبثاً أن أوصل القراءة. وقمت وخرجت إلى الصالة. وأضأت نورها. وكانت حجرة جارى مظلمة. وانتقلت إلى المطبخ فأضأت مصباحه. وعدت إلى

عنه. وبدأ يجذف بحركات محمومة. وبدا اليأس عليه. وترك المجذاف فجأة وضم راحتيه أمام فمه، وصرخ لزميل له في قارب بعيداً طالباً النجدة. لكن زميله لم يرد عليه وربما لم يسمعه. ولم تكن القهوة قد جاءتني. وناديت على الجرسون فلم يلتفت ناحيتي. فقامت وغادرت الكازينو. ومشيت إلى الكوبرى وركبت الأتوبيس. ونزلت في أول شارع سليمان. وجلست في أول مقهى صادفني. وشربت القهوة. ثم أشعلت سيجارة. وقمت فسرت إلى شارع توفيق، ثم انحدرت في التوفيقية ووقفت أمام سينما كايرو. وكانت تعرض فيلماً كوميدياً. وابتعدت في اتجاه شارع فؤاد وعبرته. وانحيت في شارع شريف. وواصلت السير فعبرت شارع عدلى ثم ثروت. ومضيت في اتجاه شارع سليمان، ثم سرت فيه حتى الميدان. وكانت مياه المجارى تملأ الأرض. والمضخات منصوبة في كل مكان تحملها من داخل

الحوانيت إلى الشارع. وكانت الرائحة لا تطاق. والتقيت بشخص أعرفه. وقال إنه استيقظ منذ ساعة فقط هو الآخر. وكان يمد ليلحق موعداً. وأسرعت بجواره وقلت: سأمشى معك حتى موعدك. لكنه قال إننا يجب أن نفترق الآن. وتركني. وعبرت الشارع وعدت في اتجاه الميدان، ثم انطلقت في شارع قصر النيل حتى وصلت السينما. تفرجت على الإعلانات التي قالت إن هذا العالم مجنون. واتجهت إلى شباك التذاكر وكان كاملاً. ووجدت شباكاً للحجز والمقاعد كاملة في حفلتى المساء، والناس تحجز للغد وبعده. غادرت السينما وعدت أسير في اتجاه الميدان مرة أخرى ثم شارع سليمان. وفي هذه المرة سرت على الناحية التي لم أسر عليها في مجيئى. وعندما وصلت سينما مترو وجدت بها فيلماً كوميدياً هي الأخرى. وتجاوزتها. ووقفت أمام الأميركيين متردداً. وكانت سينما ريفولى على يسارى وأمامها زحام شديد. وتذكرت سينمات شارع عماد الدين. وعبرت الشارع، وواصلت السير في شارع فؤاد حتى عماد الدين فأنحرفت فيه وسرت على اليسار وكان هناك زحام هائل أمام كل السينمات، ولا تعمل قبل ساعة ونصف. ووصلت إلى نهاية الشارع. فمضيت في شارع

رمسيس واتجهت إلى باب الحديد. وخيل إلى أن أحداً يتتبعنى. ثم قارنت ساعتى بساعة المحطة. واتجهت إلى مقهى فى الميدان عند بداية شارع الجمهورية، فجلست فى الخارج. واختفت الشمس فجأة. وساد لون رمادى. وتذكرت هذه المنطقة منذ عشرين عاماً. ودخان القطارات الآتى من باب الحديد واللون الرمادى فى كل مكان: فى السماء والطرق والبيوت. وقلت أقوم أبحث عن ذلك المنزل القديم. فربما كانت أمى لا تزال هناك. وقمت بسرعة قبل أن تعود الشمس. كنت أريد أن أقرب من المنزل فى الغيام. وعبرت شارع كلوت بيه. وتركت شارع الفجالة، واخترقت الشوارع الصغيرة التى تصله بالميدان. وأحسست أنى أقرب من مكان البيت. وأن بوسعى أن أخترق عدة شوارع جانبية فأصيح بجواره. لكنى قررت أن أقرب منه من ناحية شارع الفجالة كما كنا نعمل أنا وأبى.

وكنا نأتى بالترام. ونأخذ من الميدان قبل أن يتحول إلى شارع الظاهر. وكنت أحب هذا الشارع الهادئ لأنه كان مليئاً بالأشجار التى تتعانق أغصانها فوقه، فى المنتصف، فتحجب عنه الضوء. وكنت أحب صوت السنجة وهى تشق طريقها بصلاية بين فروع الأشجار. ومع ذلك كان الترام ينطلق بأقصى سرعة، فنترك وجوهنا لهواء العصر. ويضع أبى يده على طربوشه كى لا يطير. ثم ينتهى الشارع، وينحنى الترام دالفاً إلى الميدان الواسع ويبطئ من سرعته، ثم يتوقف أمام الجامع. وأنطلع إلى الحديقة الكبيرة التى تنحدر إلى أسفل حتى تختفى عن أنظار الجالس فى الترام. وخلال الأفواس الحجرية الكبيرة فى جدران الجامع أرى الأردية الحمراء والزرقاء للأولاد والبنات الذين يلعبون فى الحديقة. وتظل عيناي عليهم، والترام يعاود السير ويدور حول الجامع. ثم يختفى الجامع بحديقته مرة واحدة. ويضع أبى يده القوية على ركبتى العارية ليحمينى عندما يستدير الترام فى حدة. ونعبر شارع الخليج الضيق. وأتمنى لو كان الترام الذى نركبه هو ترام

الخليج لنمضى بين جانبي الشارع المتقاربين. ويمد أبى يده فيكاد يلمس جدران المنازل. ثم نهبط فى الفجالة. ويمسكنى أبى بيده اليمنى حتى نعبى الشارع، ثم نطلق فى طريق ضيق، ونمشى إلى جوار جدار أبيض عال تتدلى فوقه أغصان الأشجار. ويظلم الشارع فجأة رغم أن الشمس لم تختف بعد. وأدرك السبب عندما أتطلع إلى أعلى وأرى سحب الدخان الكثيف تتجمع بسرعة ثم تتبدد بعد لحظة. ويقول أبى إنه دخان القطارات قادماً من باب الحديد. وينتهى الشارع، ويظهر المنزل الذى نقصده. ويجلس أبى على دكة البواب بينما أضع السلم الطويل ماراً بأبواب تتصاعد منها رائحة الزيت المقلى. وفيما بعد نعود أنا وأبى من نفس الطريق الضيق، سائرين إلى جوار الجدار الأبيض. وعندئذ ألمح الأجراس الضخمة من خلفه. ويكون الشارع قد أظلم تماماً وخلا من المارة. وتتبدى فى نهايته بقعة من الضوء، سرعان ما تتكشف عن حانوت سجاير. ونقف فى المدخل الذى تسده فاترينة كبيرة عالية. وألصق وجهى بزجاجها الذى اعتمت بعض أجزائه. وأحرق فى علب الحلوى والشكولاتة. وجوار رأسى ألمح يد أبى تمتد إلى الجيب العلوى لينطلونه فتخرج نقوداً ثم تدحرجها فوق الزجاج، عند رأسى تماماً. ثم نترك الحانوت ونعبى الشارع إلى موقف الترام. وأشعر بالبرد، فألتصق بأبى. ويبسط هو ياقة سترته ليغطى صدره. ونقف وحننا على رصيف المحطة. ثم يأتى الترام فنصعد إلى العربة الخلفية المكشوفة، ونكمش فى ركنها وقد أمسك أبى ركبتي العارية بيده الدافئة. وينطلق الترام فى رحلة العودة، ولا نلبث أن نعبى شارع الخليج. ثم ينحرف الترام فجأة إلى اليمين، ويختفى صف المنازل الذى كان يجرى معنا على الشمال، وينبسط أمامنا فضاء واسع مظلم أخاف أن أقع فيه، فأتشبث بأبى. وبعد لحظات تألف عيناى الظلام، فأتبين الميدان الكبير وكتلة الجامع وسطه. ويدور

الترام حول الجامع وتخطى سينما مغلقة كنا نذهب إليها فى الصيف مع أمى. ثم ننفع فى شارع الظاهر الملى بالأشجار. وأسند رأسى على الحاجز الخشبي لأستمع بسرعه الخارقة هنا. وألمح أبى يعلق عينيه فى مواجهة الهواء الذى يهاجمنا بعنف.

ومشيت مع الترام حتى الكنيسة. ودخلت الشارع المجاور لها. وكان مزدحماً مليئاً بالضجيج. وانتهى الشارع. وانحرفت إلى اليمين. كان البيت الذى أذكره عالياً جداً، له بلكونات خشبية عريضة، ألقى أمى بنفسها من إحداها ذات مرة، فسقطت فى البلكونة التالية. وطفيت بعيني بين البيوت. كانت كلها واطئة. لكن واحداً منها فقط كانت له بلكونات خشبية. وقلت لا بد أن يكون هو، فاقتربت منه فى بطة. كانت البلكونات صغيرة والمدخل ضيقاً. والمدخل الذى أذكره عريض. واجتزت المدخل وصعدت السلم فى بطة. وانتهيت من السلم بأسرع مما توقعت. وكانت هناك حجرة صغيرة فى قمته. طرقت الباب. وسمعت صوتاً نساءياً يقول: ادخل. ودفعت الباب. ووقفت فى المدخل. كانت هناك ثلاث سيدات متشحات بالسواد تربعن على سرير فى الركن. وقامت واحدة منهن وأسهرت ناحيتى وهى تقول: مين؟ وعرفت فيها جدتى. وقلت لها اسمى فى صوت خافت. فاحتضنتنى وقبلتني فى خدى. وقالت: اجلس. وجلست على مقعد خشبي فى مدخل الحجرة. وأشارت جدتى إلى أصغر السيدتين وقالت: هذه خالتك. وتقدمت خالتي منى وقبلتني فى خدى. وقالت جدتى: وهذه خالتي أنا وأشارت إلى السيدة الأخرى. وقمت، وحملت المقعد، واقتربت منهن. ثم وضعته بجوار السرير وجلست فوقه. وقالت خالة جدتى: مسير الحى يتلاقى. وقالت جدتى: ساعة ما شفتك حسيت. وقالت خالتي: لسه كنا بنقول يمكن بنقابلهم فى الأتوبيس من غير ما نعرفهم. وتناولت جدتى الترانزيستور وقالت: جاء ميعاد الرواية. وأعلن صوت رصين فى الراديو عن إحدى حلقات الشيخ الأسود. وبدأت الحلقة بصبي يسأل فى صوت باك: كيف يستطيع الحياة بعد أن علم أن أباه هو

الثعبان

هكذا بدا الطريق فجأة. وكان ذلك عندما أبطأ

السائق من سرعة السيارة، وانحنى على مقودها في توجس،

ومضى يصعد بها المرتفع ثم يدور مع الطريق وهو يطلق نفييره

في صوت حاد. لم يكن هناك من شبح لكائن واحد على مبعده عشرات الأميال في كل اتجاه.

وما كان أحد ليتوقع غير ذلك في هذه الصحراء المترامية النائية. ومع ذلك كان على السائق

أن يحذر المفاجآت عند كل منحنى أو مرتفع.

وحبس الطبيب أنفاسه وهو يتطلع من النافذة إلى الصخور الضخمة كالقلاع التي

برزت. على كل جانب. وخفت الضجة ثم تلاشت داخل السيارة، وقد انحنى كل الركاب

على النوافذ يتأملون في جزع الهوة الضخمة التي تهبط على جانب الطريق مباشرة. وعند

المنحنى كانت السيارة قد ازدادت بطناً حتى أوشكت على الوقوف. ومضت تتقدم في خطوات

بطيئة كالزحف. وكانت هناك أعمدة خشبية قصيرة طلبت باللونين الأحمر والأسود وثبتت

على حافة الطريق تحذر من الهاوية. وكان اثنان من هذه الأعمدة ملقيين على الأرض.

وتجاوزت السيارة المنحنى وانحدر الطريق إلى أسفل. فاعتدل السائق في مكانه وترك

القاتل. وجلست أستمع في صمت. وأبصارهن جميعاً معلقة بالراديو. ومضت ربع ساعة. وانتهت الحلقة، وقامت جدتي لتصلى. وجاء أطفال صغار. وقالت لهم خالتي: هذا ابن خالتكم الله يرحمها. ونظرت إلى بطرف عينها. ولم أتكلم. كنت أريد الآن أن أعرف متى ماتت أمى على وجه التحديد وأين. وفرغت جدتي من الصلاة، وجاءت فجلست بجوارى. قلت لها: متى ماتت أمى بالضبط. وقالت: غداً يكتمل أول أسبوع عليها. وقلت: أين. قالت: عند أبيها. وأشرت إلى رأسى وقلت: وكيف حالها. وقالت خالة جدتي: كانت تقرأ الصحف وتتحدث في كل شئ أحسن منا، وتتنبأ بكل ما يحدث، ولم تكن تثور. وقالت جدتي: ثم مرضت فجأة ورفضت أن يراها الطبيب، أو أن تأخذ دواءً ما. وأخذت تهزل شيئاً فشيئاً، ثم امتنعت عن الطعام نهائياً. وقالت خالتي: وفي آخر يوم طلبت كوب ماء، وعندما شربته سقطت ميتة. وتطلعت في ساعتى كان موعد العسكرى يقترب. وقمت واقفاً. وقلت يجب أن أذهب الآن. وودعتهن. ونزلت السلم. وغادرت البيت. واخترقت الشوارع الجانبية حتى ميدان رمسيس. ثم اتجهت إلى محطة المترو.

مصر الجديدة

1965

بسلك واحد. وكان العمود ساقاً رفيعة من الخشب يعترضها قضيب صغير فى قمتها، فيبدو كالصليب. وكانت مئات من هذه الأعمدة بل آلاف تتسابق أمام الطبيب فى خط مستقيم على اليسار. وبدت له أشبه بصلبان أعدت ليعلق فوقها متمردون ثائرون. يُعلق الواحد منهم من يديه. ويُلصق ساعده بالقضيب الأفقى، ويُدق فى كل كف مسمار طويل. ويُربط الجسد بالعمود بحبل متين كى لا يقع الثقل كله على اليدين. وتنزف الدماء من اليدين، ثم من الأنف والغم. ثم تتصاعد رائحة نتنة تجذب الذباب والصقور والذباب. وتتدلى الرأس عاجزة خائرة: العينان مغلقتان ولكنهما تطرفان بين الحين والآخر بنظرة حائرة تتجمع فى أعماقها قوى خفية تجاهد لتتبين أو تدرك شيئاً ما. وربما تتحرك الشفتان أيضاً وتطرفان مثل العينين. لكن أحداً لن يعرف أبداً ماذا أراد صاحبهما أن يقول.

وكان الطبيب قد قرأ فى مكان ما من قبل عن الصلبان التى أقامها الرومان فى إحدى الطرق المؤدية إلى روما منذ ألفى سنة، وعلقت فوقها أجساد ستة آلاف عبد. وكان أولئك العبيد قد ثاروا وقتلوا ثم هُزموا وظلت أجسادهم المصلوبة مصدر متعة ولذة لأحرار الرومان بعض الوقت أما الصلبان فلم تشيع أبداً منذ ذلك الحين: كان الرومان قد نقلوها عن مستعمراتهم ووجد من نقلها عنهم بعد ذلك. وخطر للطبيب أن الصلبان كانت متقاربة بلا شك كهذه الأعمدة، وأنه لا يزال هناك من يستمتعون بمنظر الدماء والصلب. ولا يزال هناك أيضاً العبيد الذين يثورون ويقاتلون ويهزمون. مثل الرجال الذين جاؤوه بهم عندما كان طبيباً فى السجن. ووقفوا أمامه فى سكون وقد تدلت رؤوسهم وعروا صدورهم وظهورهم، فبدت جراحهم كأنما أنزلوا لتوهم من فوق الصلبان قبل أن تنهشم الطيور الجارحة.

كانت الصلبان تسابق السيارة. تسرع إذا أسرع. وتبطئ إذا أبطأت. والأسلاك التى تصل بينها تهتز بين الحين والآخر إذا هبت الرياح. لكن الهواء كان قد أصبح عزيزاً. وتوهجت الشمس. وبدأ السائق يبطئ من سيارته قليلاً. كان يجلس فى هدوء دون أن يعبأ

السيارة تنساب هابطة دون أن يغير سرعتها. فقد كان هناك منحني آخر. ودار الطريق من جديد صاعداً. والتمعت الشمس على الصخور الضخمة وبدت كتلها مزعجة. ولوى الطبيب عنقه إلى الوراء ليتأمل الجزء من الطريق الذى خلفه وراءهم. وإلى أسفل كان الطريق الطويل الضيق يمتد وسط الصحراء فى شريط أسود لا نهاية له، ويلتوى على نفسه ويدور صاعداً وهابطاً فى دوائر. وأحس بأنفاس الراكب الجالس خلفه تصطدم بقفاه فى دقات قصيرة متلاحقة، ثم سمعه يهمس بصوت خافت: "ياه .. زى التعبان".

وعندئذ أخذ كل شئ يبدو كئى آخر. وقبل ذلك لم يكن هناك غير الضجر بالساعات الأربع التى تستغرقها الرحلة حتى أسيوط. وكان الطريق فى البداية يمتد مستقيماً، والصحراء تنبسط يميناً ويساراً إلى ما لا نهاية دون أن يعترضها مرتفع واحد. فلم تكن الجبال إلا خطوطاً بعيدة فى الأفق. ولم يكن هناك ما يوحي بأن جغرافية المكان ستتغير فرحلة المجئ كانت بالليل الذى أخفى تفاصيل الطريق، ولم تتكشف حقيقته إلا عندما بدأ ينثنى ويدور صاعداً هابطاً ويلتوى ويتموج منطلقاً إلى الأمام كالشعبان.

لم يكن هناك من طير أو حيوان أو إنسان فى أى ناحية. لم يكن هناك غير الرمال والصخور. والأعمدة التى تتتابع فى سرعة خاطفة على جانبي الطريق، بعضها يحمل إرشادات للسائق، والبعض الآخر يحمل أرقاماً مختلفة فشل الطبيب فى أين يحدد أيها يعين المسافة المتبقية على أسيوط. والبعض الثالث كان أقرب إلى شواهد حجرية صغيرة تحمل أرقاماً مضموسة وتبدو كالتماثيل الحجرية القديمة لفلاسفة اليونان والرومان التى تظهر صورها فى الكتب والمجلات.

وإلى اليسار كانت أعمدة التليفون التى تربط الواحات بأسيوط تجرى مع السيارة. كان عمود منها تسنده أسلاك متينة تثبت إلى الأرض بأثقال من الأحجار حتى لا تجرفها رياح الصحراء العنيفة. وفى بعض الأحيان كان العمود ينتصب مجرداً من الأسلاك أو مثبتاً

ومحطمين. لا تستطيع أن تميز بينهم بملابسهم الزرقاء المتشابهة ووجوههم اللامبالية. بعضهم مريض فعلاً وقاسى كثيراً حتى وصل إليه والبعض الآخر يحشد كل ما أوتى من دهاء ليفوز منه بكوب من اللبن أو قطعة لحم أو بطانية. لكن الطبيب كان يرى الخوف والألم على وجوههم جميعاً.

وفي البداية - عندما كان شاباً مليئاً بالحيوية وعندما كان كل شئ يبدو بسيطاً واضحاً كما كان الطريق يبدو هذا الصباح قبل أن يتلوى ويتعقد ويتموج كالثعبان - كان يظن أنه يستطيع أن يقهر الألم. لكنه كان واهماً. فقد كان الألم كالسرطان تستأصله من مكان فيظهر على الفور في مكان آخر. وأصبح يستيقظ من نومه كل ليلة صارخاً بعد حلم واحد لا يتغير. وفي هذا الحلم كان يرى نفسه جالساً إلى مائدة صغيرة وسماحته معلقة في رقبتة وخلفه سجين يحمل إناء به سائل أحمر أدرك أنه دماء. وكان يغمس أصابعه في هذا الإناء بعد كل كشف. وعلى جانبه يقف عملاقان كالحراس في ملابس التمريض البيضاء. وهو تحتها ضئيل جداً. وأمامه صفوف من السجناء يقتعدون الأرض لكنهم لا ينظرون إليه. فبصرهم معلق بأحد العملاقين الذى يلوك شيئاً بين أسنانه وقد شردت عيناه وتبدت ملامح وجهه غاضبة شرسة تنذر بأنه قد يعود إلى وعيه مزمجراً فى أية لحظة. ويأتى المتعهد السمين باللبن - الذى يشربه مرضى السجن - كى يفحصه الطبيب. ويضع الرجل إناء اللبن أمامه ثم يصب فيه دلواً من مياه الغسيل القذرة. ثم يدخل آخر حاملاً الذبيحة التى سيأكل منها السجناء، ويقربها منه ليفحصها، ويريه وهو يبتسم الأجزاء المهترئة المريضة ثم يحملها وينطلق إلى الداخل. أما هو فيلوح بيديه ويود أن يصرخ ويحتج ويرفض ويهدد، لكن الصوت يحتبس في حنجرتة ويتخبط هناك ناشباً أظافره فى سقف الحلق.

ولم يكن من الممكن أن يستمر هذا إلى الأبد فقد كان شيئاً يحطم الأعصاب.

وكانت أعصابه هادئة الآن. لكن معدته كانت قد بدأت تضطرب من أثر المطبات.

بشئ حوله. ولا بد أنه كان يحس بملل فظيع. فأى لذة فى أن يظل راثحاً غادياً فى هذا الطريق الطويل الذى لا يتغير به منظر واحد. أعمدة التليفون هى هى، والصخور وأرقام الكيلومترات والاستراحتان الخاليتان وسيارة النقل التى أوقفها صاحبها على جانب الطريق ونام فوقها. وهذه الخيمة الوحيدة ... لم يكن بها من أثر للحياة. كأنما هجرها أصحابها فجأة لسبب ما. أو افترستهم الوحوش ولم تترك منهم شيئاً. لكن شخصاً ظهر فجأة على باب الخيمة عندما اقتربت السيارة منها. كان يرتدى ملابس الجنود وعلى رأسه بيريه أزاحه إلى الخلف. وظهرت قطرات عرق على وجهه وعنقه. وعندما فتح سترته بدت منها فائلة متسخة. وكان يحمل دفتراً صغيراً فى يده. وتقدم على مهل من السيارة التى توقفت تماماً. واتجه إلى باب السائق وقد تقلصت ملامح وجهه فى ضيق. وأدرك الطبيب أنها نقطة مرور. وعلى باب الخيمة ظهر جندي آخر يحمل بندقية فى يده ولا يرتدى شيئاً فى قدميه. ووقف يتطلع إلى السيارة فى غير مبالاة وعيناه تدوران بنوافذها تبحثان بلا شك عن وجه امرأة يرطب قليلاً من جفاف الصحراء. وفكر الطبيب أنه لا يوجد أحد غير هذين الجنديين هنا. وحاول أن يتصور كيف يقضيان الوقت طول النهار وطول الليل. وكيف يحصلان على طعامهما. وخطر له أنهما لابد يقاسيان الليل. فبرد الصحراء مثل حرها لا يطاق. ولا بد أنهما ينامان أيضاً متجاورين. وربما شعر أحدهما بالبرد والوحدة ذات ليلة فالتصق بزميله. وفى الليل - عندما يشتد البرد وتعجز الأغذية القليلة عن مقاومته وعندما تبدو السماء هائلة صامتة وتعوى الذئاب والوحوش التى لم يرها أحد - عندئذ لا تعرف ماذا يمكن أن يحدث.

وكان الطبيب يستطيع أن يتتبع الشعور بالبرد والوحدة فى أى إنسان. وربما كان السبب فى ذلك أنه قضى شطراً كبيراً من حياته العملية فى السجون. ففى تلك المباني القائمة - الصفراء من الحارج المظلمة من الدا خل - ترى كل شئ عارياً. وعندما كان السجناء يأتون إلى غرفته ليوقع عليهم الكشف كان يتأملهم فى فضول. كانوا مساكين جداً، مرضى وعواجز

فرغم أن الطريق مضى على شقه ورصفه أقل من عامين إلا أن الرصف أصيب بالتلف في أكثر من موضع. وفكر الطبيب أن شق الطريق لم يكن بالأمر الصعب. فقد كانت الصحراء منبسطة كالسهل إلا في مكان أو اثنين. وكانت السيارة تقترب الآن من أحد هذه الأماكن الوعرة. وهو شبه نفق وسط جبل تبدو عليه آثار عمل حديث. فلم يكن هناك شك في أن الأيدي والآلات هي التي شقت هذا النفق وسط الجبل. كان السفحان قريبين جداً بصخورهما الحمراء. وسارت السيارة ببطء في النفق، فاصطبغ الجو كله باللون الأحمر. وعاد السائق ينحنى على المقود في توجس. وتطلع الركاب من النوافذ في رهبة إلى الصخور الضخمة المعلقة على السطح على بعد ذراع كأنها موشكة على السقوط بين لحظة وأخرى.

وكان الطبيب يتأمل السطح والقمة في فضول وترقب كأنه يتوقع أن تبرز رؤوس ملونة تصرخ وتهجم عليهم كالجراد، وتمطرهم بالسهم المسممة كما يحدث في الأفلام. أو ينطلق الرصاص فجأة من كل مكان يصوبه أعداء مجهولون يتربصون. ولم يخطر للطبيب أنه يحلم أو يتخيل، فقد كان يعرف أن شيئاً مثل هذا يحدث في الناحية الأخرى من الصحراء عبر البحر. وربما في هذه اللحظة بالذات كان هناك جبل مثل هذا الجبل. له صخور وتجاويف وكهوف يختفى فيها القتلة. وربما كان هناك جندي يجلس على حافته. ومن خلفه يتسلل عدة رجال أنصاف عراة يحملون الخناجر ولا يعرفون شيئاً غير القتل، ويهجمون على الجندي في صمت وتنهال عليه الطعنات. ويتدحرج على التراب ودماؤه تترك خطأ أحمر من خلفه، سرعان ما يتجمد ملتصقاً بالتراب ويتدحرج بسرعة، والغباب يرتفع فوقه حتى يستقر في القاع. وفي أعلى يستمر القتال الوحشي، ثم يتوقف بعد أن يتحقق النصر، ويبدأ التعمير. وتشق الطرق. وتبنى المصانع. وتقام دور السينما. وتؤلف أغاني الحب وتذاع من الراديو. ولن يسمعها الجندي القتيل، ولن يرى شيئاً من هذا كله، فهو لن يبارح مكانه أبداً في الصحراء.

وفي الصحراء كان يركب السيارة متضجراً من الحر والملل. وكانت ساعته تقول إن

السيارة قطعت نصف المسافة. وكان يفكر أنه كان يجب أن يحضر معه راديو صغير يتسلى به. وفي القاهرة كانوا يأكلون الجلاس ويشربون أكواب المانجو المثلجة ويتفرجون على التلفزيون. ومن جديد مروا بسيارة نقل انتحت جانباً من الطريق وتكوم سائقها على ظهرها وراح في النوم. وأمامه كان يجلس شابان أنيقان. وكان أحدهما يعتقد أن الطريق الذي يمتد أمامهما وسط الرمال يذكره بطريق الإسكندرية. وكان ذلك رأى الثاني أيضاً الذي وقعت له حوادث عجيبة في ذلك الطريق عندما كان يعبره بسيارة صغيرة اسمها كيكى. وإلى جوار الطبيب انكمش راكب ضئيل الجسم فوق مقعده الذي يعلو غطاء عجلة السيارة وتضاءل في مكانه. وكان غارقاً في التفكير كأنه يحسب حسبة حياته. ولا بد أن أفكاره لم تكن مشجعة.

وليس هذا بغريب، فعندما يكون المرء وسط الصحراء والعرق يتصبب على وجهه والطريق أمامه لا تبدو له نهاية وعضلات فخذه تؤلمه وأعصابه بدأت تنن وهو يتقلب في مكانه بحثاً عن ناحية يمكن أن يرتاح عليها - وأيضاً عندما يكون قد تجاوز الأربعين - عندئذ لا يمكن أن تكون أفكاره وردية. وفي هذه اللحظة يتمثل له الموت نهاية لكل شئ.

وعند أي طبيب يكون الموت شيئاً مألوفاً. ولو أنه يبعث على التفكير أحياناً. وهذا ما حدث بالأمس. فعندما كان يتجول في أنحاء مستشفى الواحات وهو ضيق بالذباب والغباب، كان يفكر في أن الموت هو مصير كل منا. وأي مريض لا يضيره أن يموت اليوم قبل غد، ما دام ذلك سيحدث بالتأكيد في يوم ما. وكانت هذه الفكرة بسيطة ومغرية. وكان معناها أن ينهي هذه المهمة الثقيلة بسرعة ليلحق بحجرة المحافظ المكيفة الهواء.

وكان هذا أمراً سهلاً. وفي الأعوام الأخيرة لم يكن بذى بال على الإطلاق. فيكفى أن تجعل داخلك بارداً لا يهتز وأن لا تعبأ لكى يبدو كل شئ يسير ويمر ببساطة. كانت الأرض قدرة لم تفلح جرادل المياه التي صببت فوقها على عجل في إزالة قذارتها. وكان المرضون يرتدون أردية بيضاء ناصعة، لكنه كان يعرف أنهم سيخلعونها عندما يوليهم

ظهره. وكانت الملاءات التي تغطى الأسرة نظيفة. ولكنه كان يستطيع أن يتصور ما يختفى تحتها. لكن ذلك لم يكن بذي أهمية، فيكفى أن كل شئ يبدو على ما يرام وأنه يستطيع أن ينصرف على الفور.

وكان المرضى يرقدون فوق أسرتهم فى ملابسهم المتماثلة التى تقارب لون وجوههم صفراً. وكانوا يتابعونه بنظراته. ولولا عيونهم هذه لخالهم جثثاً خالية من الحياة. ومن نظراتهم أدرك أنه لا يجب أن يعطى أحدهم فرصة وإلا لما انتهى. ولهذا التزم جانب الممر الرئيسى وسط الأسرة وتحاشى أن تلتقى عيناه بأحد منهم. فكان يدير ظهره لهم. ويرفع عينيه إلى السقف، ويضع يديه فى جيوبه، ويحنى رأسه إلى الأمام ليتأمل شيئاً ما على البلاط العارى. لكنه كان دائماً يشعر بالعيون مسلطة عليه، قوية مسيطرة تشده رغماً عنه، وتجبره على أن يتحول إليها ويواجهها مبهوتاً. كانت فجوات واسعة غائبة لكن شيئاً غريباً كان يتجمع فى أعماقها. شيئاً يشد ويأسر ويكبل. شيئاً قديماً مألوفاً لا يمكن تجاهله.



استرخى الطبيب فى مقعد السيارة ومضى يتطلع من النافذة المواجهة التى جلس السائق أمام لوحها الأيسر. كان يعرف أن الثعبان يمتد من الخلف. فمن أمام لم يكن هناك شئ. ولم يكن يبدو من الطريق أكثر من عدة خطوات. فقد كانت الصحراء تخفيه فى عناية ولا تكشف عنه إلا جزءاً جزءاً. وكان الطريق يصعد أحياناً فلا يرى منه إلا خطوة واحدة. ويضغط السائق على نفييره محذراً، وعندما يتلاشى المرتفع ينبسط الطريق خالياً تماماً. ويوشك الطبيب أن يبتسم من الخدعة التى تتكرر دون توقف، وتجاوز على السائق فى كل مرة. أما من الخلف فقد كان الثعبان يلتوى بوضوح تاركاً ذيله بعيداً بعد الواحة. أما الرأس فكانت تزحف إلى الأمام بسرعة محمومة، تشرئب بعنقها فى شوق ولهفة لترى ماذا بعد. وتبدو الجبال فجأة وكأنها تسد الطريق. ويتساءل الطبيب لحظة أين سيمضى السائق وكيف

سيفلت. لكن رأس الثعبان لا تلبث أن تشق طريقها بمعجزة فى مكان ما بجوار الجبال. وكان الطريق خالياً إلا من المطبات. وكانت السيارة تنطلق بسرعة وخفة. وأرقام الكيلومترات تتابع. فقد استطاع الطبيب أن يحل لغز هذه الأرقام ويعرف أيها يشير إلى ما تبقى من مسافة. وكانت المسافة الباقية على أسبوط لا تتجاوز الخمسين كيلو متراً. وران الصمت على السيارة، وأسند بعض الركاب رؤوسهم إلى ظهور المقاعد المواجهة لهم واستغرقوا فى النوم. وبلغ الضجر بالطبيب القمة. كانت عيناه مشدودتين إلى الأرض التى تتموج من النافذة، وعند كل انحناء أو مرتفع كان يمنى نفسه بأن تظهر بعدها منازل أسبوط ومبانيها. ولكنه يفاجأ برمال ومرتفعات جديدة. وبدا الطريق بلا نهاية. وازداد الكيلومتر طولاً. وأصبح ينتهى بشق الأنف. وظل رقم الأربعين ثابتاً لفترة طويلة. وقرر الطبيب فى النهاية أن يتجاهل هذه الأرقام ولا يتابعها ببصره وذهنه، وأن يفكر فى شئ آخر يقطع به الوقت. وعندئذ ظهر الخط الداكن الطويل.

كان يمتد بعيداً فى الأفق، ولكنه كان يقترب بسرعة. وفى البداية كان أشبه بسحابة كثيفة فى السماء البعيدة. ثم ما لبث أن بدا أقرب إلى الأرض منه إلى السماء. واستدار الطبيب قليلاً إلى الراكب الذى يجلس خلفه كأنما يسأله رأيه. وتبرع ذلك بالإجابة على الفور فقال وهو يتنهد فى ارتياح: "أسبوط".

كانت السيارة الآن لا تكاد تلمس الأرض. ومر به رقم الكيلومتر فوجده الثلاثين. وأخذ الخط الداكن يتضح لحظة بعد أخرى فيتحول لونه الغامض إلى خضرة كثيفة تقترب بسرعة. ورأس الثعبان تميل كل لحظة إلى اليمين واليسار مع دورات الطريق وهى تتجه إلى الخضرة فى إصرار. وبدأ الركاب يفقدون استرخاءهم ويعتدلون فى أماكنهم، متطلعين فى اهتمام وارتياح إلى الحقول البعيدة. وكانت تلك هى اللحظة التى ظهرت فيها الألواح البيضاء الكبيرة التى صفت بشكل مائل بحذاء الحقول. وانحنى الطبيب إلى الأمام وهو

يتابعها ببصره متسائلاً عن أمرها. وتبين بعد لحظة مباني حجرية كبيرة كالمصاطب بعضها من عدة درجات مثل هرم سقارة المدرج. ولم يكن عددها كبيراً. وكانت متناسقة الأحجام متساوية الجوانب مصقولة الحواف. أو هكذا بدت من بعيد. وكان بعضها يحمل خطوطاً وأشكالاً ساذجة باللون الأحمر كتلك التي يرسمونها على بيوت الحجاج في القرى والأحياء الشعبية من المدن ويكتبون عليها بخط رديء: حج مبروك وذنوب مغفور.

وتلملم الطبيب في مكانه حائراً. وقال الراكب الذي يجلس خلفه وكأنما أدرك حيرته: "جبانة أسيوط".

ارتسمت ابتسامة واهنة على شفתי الطبيب. وفكر أنه لم ير مثل هذه المقابر من قبل على كثرة ما زار من قرى ومدن. ودارت السيارة إلى اليسار، وقد تضاءلت سرعتها، وبدأت تعبر جسراً حديدياً. وظهر الناس فجأة في كل ناحية وكأنما انشقت عنهم الأرض. وأخذ الفلاحون يتطلعون إلى السيارة وركابها في دهشة كدأبهم دائماً. وسار ثلاثة طلبية صغار السن في نشاط على جانب الجسر وقد شمروا أكمامهم وضغطوا على كتبهم. وتابعهم الطبيب في أسي. وعبرت السيارة الجسر وتحولت إلى شارع عريض تظله الأشجار. وانسابت مساه النيل على اليمين عميقة رحبة. لم تكن الرحلة قد انتهت، فلا زالت هناك بضعة كيلومترات على المدينة. لكن الطريق الثعباني كان قد اختفى. وعندما استدار الطبيب إلى الخلف ليتأمله لم يعثر له على أثر. فقد كان إذ ذاك مدفوناً في رمال الصحراء. وبالمثل لم يتبين المقابر الغريبة. فقد كانت أشجار الكافور الضخمة العالية تحجب كل شئ خلفها. وكانت صفوف من هذه الأشجار قد شرعت تجرى مع السيارة وتسابقها.

سجن (المبارق)

بالدوام (الخارجية)

1963

أرسين لوبيين

اقتربت من الدكان في تردد. وعندما أصبحت أمام

الباب اختلست النظر إلى الداخل فوجدت ما كنت أتوقعه. كان الرجل ممدداً على مقعد قديم وقد كشف جلبابه عن عظمة ساقه المنتفخة. وكان يتنفس بصوت مرتفع.

وقفت عند الباب لا أدرى ماذا أفعل. وأمامي إلى اليسار كان الرفان الصغيران اللذان كنت أحلم بهما طوال الأيام الماضية، وفوقهما عشرات من روايات الجيب الرفيعة. بل مئات. كان بيني وبينهما خطوة أو خطوتان. لكن الرجل كان نائماً، رغم أننا لا زلنا في الصباح. وكنت أخاف أن يستيقظ فجأة ويراني. وفي نفس الوقت لم أكن أستطيع الانصراف. لم أكن أستطيع أن أتصور نفسي طول اليوم بدون رواية. وخطوات إلى الداخل. ناديته وأنا أضع يدي في رفق على ساقه المنبعجة. وتوقف صوت تنفسه على الفور. واهتز جسمه قليلاً. ثم انفرجت عينه اليسرى عن دائرة حمراء. وانفجرت شفاهه عن زمجرة.

قلت له وأنا أشير بأصبعي إلى الروايات "حادور على رواية".

انطلقت زمجرة ثانية من فمه. وخيل لي أنه سينقض على ويحطمني. لكنه اعتدل جالساً

وهو يتنهد. وجعل يمسح رقبتيه بمنديل متسخ. وتطلعت عيناه الحمراء إلى بكل سعتهما،

فابتعدت عنه. وعندما ظل صامتاً، اتجهت إلى الرقبن في بطنه ووقفت أمامهما أقلب في الروايات. كانت الروايات قديمة، اختفت أغلفتها، واسمرت صفحاتها وتمزقت. وكان التراب يتصاعد منها ممزوجاً برائحة غريبة كانت تأتي من كل شيء في الدكان. وكنت أحب هذه الرائحة. استعرضت المجموعة في سرعة مكتفياً بالنظر إلى الصفحة الأولى بحثاً عن سطر من كلمات صغيرة أسفل العنوان. وانتهيت من الصف الأول دون أن أعثر على بغيتي. وشعرت بالضيق. وبدأ العرق يتصبب على وجهي. واختلست النظر إلى الرجل وأنا أخشى أن يزمجر أو ينفجر في. لكنه كان ينظر إلى بعينييه الحمراوين في صمت. وقال فجأة: "ما فيش أرسين لوبين". توقفت يداي. كان لا يزال أمامي رف بأكمله. وخيل إلى أنه يود التخلص مني. فقررت أن أستأنف البحث. وواصلت التدوير بسرعة فائقة. لكنني لم أجد رواية واحدة لأرسين لوبين. وغالبت شعور الضيق الذي تملكني وعدت أقلب الروايات من جديد على مهل. كنت أريد الآن أي رواية بوليسية عادية.

زهرة الموت قرأتها. الجريمة الكاملة أحضرها أبي إلى البيت من قبل. اللغز الصيني. كانت أول رواية لأرسين لوبين أقرأها. العيون الثلاثة لموريس لبلان. نفس مؤلف أرسين لوبين لكنها ليست عنه. وأخذت فيها مقلباً من قبل. لو تكون هناك رواية لأرسين لوبين فانت على في البحث الأول. إعدام في الفجر. تبدو كمأساة وأنا لا أحب الروايات المفجعة. الحب العظيم. ولا أحب الروايات الغرامية أيضاً. مدرسة الأسرار. لا يبدو موضوعها من صورة الغلاف. قناع الموت. لغز الألغاز. قرأت كل هذا. الحطام. منظرها واسمها لا يشجعان. أنزلت يدي في يأس. كان ساعدي قد بدأ يؤلمني. وبدأ كأني لن أخرج بشئ هذه المرة. وزمجر الرجل من خلفي: "هو أنت موش عاجباك حاجة من كل دول؟" أجبت بسرعة وأنا أستأنف البحث: "لا.. خلاص.. أهوه.."

جريمة بين السحاب. قرأتها من قبل ولا بأس من أخذها مرة ثانية لو لم أعثر على شئ.

ووضعتها جانباً. الرسائل المجهولة. قرأتها. هذه الرواية التي اسمها مدرسة الأسرار، لنجربها. ربما تكون مفاجئة. المرشد. الأخوات البيضاء. خبزنا اليومي. يوجيني جراندنيه. عناوين لا معنى لها ويمكن أن تكون كل منها مقلباً. والأكيد أنها ليست بوليسية. لا يوجد أي شئ لشركوك هولز أو حتى شارلي شان الصيني رغم ثقل دمه. كل الروايات صغيرة الحجم. لو أجد واحدة من الروايات الكبيرة القديمة. لو أقع صدفة على الرواية التي كانت في بيتنا وأنا صغير جداً وللأسف لم أقرأها لأن ما قرأته منها كافياً لإلقاء الرعب في صدي وجعلني أمزقها لأتخلص منها. ولا زلت أذكر منها كلاماً عن شاطئ وقصر مهجور تقع به جريمة وناس تجرى في الظلام وتتھامس. وهناك أيضاً رواية العين الحمراء. ثم الرواية التي كان أبي يقرأ فيها دائماً...

ودوي صوت مفاجئ. قريب مني بل فوق رأسي تماماً:

"إوعى... ما فيش روايات. مش حنبيع روايات".

كان الرجل قد انتفض من مقعده غاضباً وخطف مني الروايات التي كنت أحتفظ بها في يدي لأختار منها في النهاية عندما أفضل في الحصول على واحدة حلوة. وتطلعت حولى في يأس. كل هذا البحث وأعود بلا شئ. ولمحت كتاباً ذا غلاف أسود سميك ملقى على مقربة، فتناولته بسرعة وفتحته. كان ورقه أصفر خشناً وطباعته رديئة. وحسبته من الكتب القديمة التي لا شأن لها بالروايات. ولم يكن له عنوان أو بداية. وقلبت صفحاته بسرعة. ثم أدركت أنه من القصص البوليسية القديمة. وقلت في لهفة: "خلاص. حاخذ ده". لكنه خطف الكتاب من يدي ودفعني في جنبى وهو يزعق: "ما عندناش روايات. مش حنبيع روايات".

ابتعدت في أسي. ولم يكن أمامي وقت لأذهب إلى دكان آخر. وكان يجب أن أعود على الفور. فلم يكن أبى يعرف أنى خرجت.

وعندما دخلت الحارة سرت بجوار جدار البيوت محاذراً كي لا يرانى أبى لو كان

يقف في البلكونة. وصعدت السلم جرياً حتى لهثت وعرقت. ووجدت باب الشقة موارباً كما تركته، فتسللت داخلاً وأنا أتصنت لأحدد مكان أبي. وأحسست أنه في غرفة النوم، فأتجهت إليها. ورأيتَه متربعاً على السرير وأمامه المائدة الخشبية، وقد وضع فوقها علبة الحلاقة التي كانت في الأصل صندوقاً للسجاير من الكرتون، وأسند المرأة إلى كوب من الزجاج ملئ بالماء. وكان يسن الموسيقى على راحة يده.

راقبت الموسيقى وهو يروح ويجئ فوق لحم كفه المتين في بطء وثبات. أدركت أنه سيخرج. ولم يبد عليه أنه أحس بغيايبي، فجلست على مقعد خشبي بغير مسند في الركن، وجعلت أرقبه وهو يضع الصابون على ذقنه ويمر عليها بالكنتة ثم ينحني إلى الأمام ليرى وجهه في المرآة. وعندما انتهى دعك ذقنه بقطعة من الشبه، فبدت ناعمة منتعشة، وأردت أن ألمسها بأصبعي.

التفت إلى فجأة قائلاً: "إلبس هدموك عشان تخرج معايا".

كان الخروج معه أحسن من عشر روايات. وربما سنحت الفرصة في الطريق لشراء رواية. وقبل أن تنتبه أختي للأمر، فتبكي وتصرخ وتصر على الخروج معنا، ضحك عليها أبي بأن قال لها إنه سيتركها تلعب طوال اليوم في شقة أم زكية المجاورة لنا. ارتدى أبي ملابسه، ومسح طربوشه بكم سترته وأحكم وضعه فوق رأسه، ثم طوى طرفي شاربه الأبيض داخل فتحتى أنفه. وغادرنا الشقة وأغلقتنا بابها وراءنا، وانطلقنا إلى الشارع. ولاحظت أننا نتجه إلى محطة الترام.

سألته: "إحنا رايجين فين؟"

فأجاب: "الوقت تعرف."

ركبنا الترام. وقطعنا مسافة طويلة ثم هبطنا أمام مبنى كبير مسور ومزدحم بالناس عند بابيه وفي فئانه.

قال أبي: "دى المحكمة".

دخلنا إلى الفناء. وقال أبي: "الوقت إحنا حنخش جوه. وحنلاقي مامتك قاعدة مع أمها".

دهشت: "ماما؟"

- "أيوه. تروح تسلم عليها وتشوف حتقولك إيه".

- "وانت مش جاي؟"

- لا. حسنتاك بره في الطرقة".

وقادني أبي إلى ردهة كبيرة مظلمة. ومررنا بباب على اليمين فدفعني ناحيته وهو يقول: "أهى هناك أهيه". وبالفعل رأيتها.

كانت تجلس ساكنة بجوار جدتي. وكانت الأخيرة أول من أبصرتني. فتطلعت خلفي في اهتمام، ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة غريبة لم أسترح لها، وجعلت تنظر إلى في جمود. وكان وجهها محاطاً بطرحة بيضاء باهتة.

اقتربت منها وأنا أنظر إلى أمي. كانت ترتدى معطفاً من الحرير الأسود وحول رأسها "بيشة". ولاحظت شعرها الأسود الطويل. وخيل لي أنها ازدادت طولاً وعرضاً عن آخر مرة رأيتها. ورأنتني أمي. لكن لم يبد عليك أنها عرفتنى. وفجأة خاطبتني في هدوء كأنني لم أفترق عنها أبداً: "إزيك".

لكنها لم تطلب مني أن أجلس بجوارها. وانصرفت عني تتأمل ما يجري في القاعة. وقفت حائراً لا أدري ماذا أفعل. وحانت مني نظرة إلى الردهة الخارجية، فوجدت أبي يستدير برأسه ناحيتي وهو يتمشى واضعاً يديه خلف ظهره. وأبصرت مكاناً خالياً بجوار أمي فجلست فيه.

كنا في آخر القاعة. ولم تكن مزدحمة. وكانت بها دكك مستطيلة في نهايتها منصة مرتفعة جلس إليها القاضي، وإلى يساره وقف شيخ بققطان وعمة ونظارة وسيدة بملاءة لف. وكانوا يتناقشون. كانت هذه أول مرة أرى فيه محكمة. واستغربت. فلم يكن هناك شئ مما كنت أتصوره. لا مرافعات ملتبهة، وقاعة مزدحمة، وقاض يرتدى وشاحاً ملوناً، ومحام يلوح بيديه ويرن صوته في أنحاء القاعة.

نهضت جدتي فجأة ومضت إلى رجل بعمة فتحدثت معه قليلاً. والتفت إلى اليسار فرأيت
أبى يتكلم مع بعض الناس. واختلست نظرة إلى أمى فوجدتها كما هى تتطلع أمامها بغير اكرات.
وذهبت جدتى إلى أقصى القاعة وتحدثت قليلاً مع القاضى.

ولاحظت أن أبى يشير إلى من بعيد، فقممت واقفاً. ولم أدر ماذا أقول لأمى. ولم
تنظر هى ناحيتى. فمشيت دون أن أقول لها شيئاً. وقال لى أبى: "هيه.. قالت لك إيه؟."
- "مفيش. قالت لى إزيك."

اتجه أبى إلى الباب وأنا معه. وسرنا فى الشارع، وكان ضيقاً وعلى جانبيه دكاكين
قديمة. وكان أبى يدخن. ولمحت دكاناً به بعض الكتب. وجذبت أبى من يده وقلت له وأنا
أستعد لخوض معركة: "بابا.. تعالى نسأل على روايات".

لم يعارض أبى. وصحبنى إلى الدكان وسأل صاحبه: "عندك روايات يا عم؟". قدم
لنا الرجل خمس روايات وجدت أنى قرأتها جميعاً عدا واحدة. وكدت أفضز من الفرح.
أرسين لوبين فى قاع البحر. وكانت الرواية جديدة ذات غلاف ملون ناعم يللمع. أخذت
الرواية ودفع أبى ثمنها وخرجنا إلى الشارع الرئيسى.

وكننت أتمنى الآن أن نعود بأقصى سرعة.

ركبنا الترام ووضعت الرواية على ساقى مخفياً غلافها الأمامى. وجعلت أتأمل
الغلاف الخلفى كان أبيض مصقولاً ويحمل إعلاناً عن الرواية التالية. وطوح الهواء بالغلاف
فظهرت الصفحة الأخيرة وفى نهايتها كلمة لذيذة كبيرة: "تمت". وقاومت حتى لا أقرأ آخر
سطور الرواية فأدرتها إلى وجهها الأمامى. طالعتى مسدس كبير وخلفه وجه رجل يرتدى
قبعة لا بد أنه أرسين لوبين شخصياً. كان الاسم الساحر مكتوباً بحروف صغيرة أسفل
العنوان. وقرأته وأنا أكاد أطير من السعادة.

سجن للمارين بالدراجات الخارجية 1963

بعد الظهر عبر ثلاثة أسرّة

كان جائعاً، والنهب الموضوع فوق جهاز التليفزيون
يشير إلى الثانية. وما زالت هناك ثلث ساعة على موعد سيد.
وعندئذ يبدأون جميعاً الأكل.

ومال برأسه قليلاً ينصت إلى حركتها فى المطبخ. كان يعرف أنها تنتقل الآن
بنشاط، رغم أعوامها الخمسة والستين، بين الحوض والبوتاجاز والمائدة ذات الغطاء الصاج.
وأن كل شئ حولها متناثر فى فوضى بالغة.

وعندنا توشك على الانتهاء ستصيح به من المطبخ: "ألم يحن موعد عودة
سيد بعد؟"

فينظر إلى النبه ويدقق النظر من خلف عويناته السميقة ثم يجيب: "لا بد أنه
فى الطريق الآن".

وفى موضعه الذى اختاره من السرير، كان بوسعه أن يرى باب الشقة عندما يدير
سيد المفتاح فيه، وينفس الحركة يدفعه ويخطو إلى الداخل قائلاً: "السلام عليكم".

وبالرغم من أن زوجته لم تكف عن الشكوى من أن موضعه هذا يجعله عرضة

لتيارات الهواء، إلا أنه ظل متمسكاً به منذ أصبح المرض المتكرر يلزمه الفراش، كى يكون على مقربة من "الأحداث" على حد قوله. فقد كانت الغرفة تضم ثلاثة أسرة. اثنان منها يحصران باب البلكونة بينهما. والثالث يصنع مع أحدهما خطأً مستقيماً. وعندما يستلقى فوقه يواجه البلكونة. وإذا استدار وجلس بعرض السرير مسنداً ظهره إلى الحائط - كما هي عادته - أصبح باب الغرفة في مواجهته، وبعده الصالة ثم باب الشقة.

ولهذا السبب كان باب البلكونة يظل مغلقاً دائماً بالليل والنهار، وبالصيف والشتاء، حتى أن من يزورهم - وخاصة ابنتهما فادية - كان يشتكى من أن رائحة الشقة لا تطاق.

وطبقاً للمنبه لا بد أن يكون سيد الآن على رأس الشارع، يتقدم بخطواته الطويلة المتهللة وصحيفة اليوم مطوية تحت إبطه. وعندما يصل إلى بائع الخبز سيتوقف عنده ليشتري عشرة أرغفة يلفها بالصحيفة ثم يواصل السير إلى الجمعية التعاونية ليرى ما بها من بضاعة جديدة. ولو حالفه الحظ..

مصمم بشفتيه متمنياً أن يحضر سيد معه شيئاً من البلح "الأمهات" الذى يتميز، فضلاً عن رخص ثمنه، بسهولة مضغه وابتلاعه وحلاوة طعمه إذا ما غُمس بالطحينة البيضاء. ولم تكن هذه متوفرة في السوق الآن.

هز رأسه في حركة من لوازمه. ومد أصابعه تحت الفانلة وجعل يدعك صدره بقوة ليفرك القذارة التى تكومت عليه. فبسبب مرضه كان معيماً من الاستحمام، وهي عملية لم يكن يستسيغها منذ صغره لا كرهاً في النظافة وإنما بدافع الكسل. وبهذا الدافع كان وهو صغير ينام بملابس الخروج، كى يختصر الوقت لارتدائها في الصباح قبل الذهاب إلى المدرسة. وهي عادة اضطر أن يقلع عنها عندما أخذ الابتدائية والتحق بالوزارة.

شك يديه على بطنه وتطلع مرة أخرى إلى المنبه. بعد عشر دقائق يحين موعد

نشرة الأخبار. ولا بد أن يأتى سيد قبل ذلك ليدير الراديو الموضوع في الصالة.

ومن المطبخ أتاها صوت طشيش الثقيلة قبل أن يشم رائحتها. واعتدل في مكانه وهو يطرف بعينيه خلف النظارة السمكية كى لا يفوته باب الشقة عندما فتح ودخل سيد.

وارتفع صوت الأم من المطبخ: "سيد؟ جئت يا حبيبي؟"

عبر سيد الصالة بعد أن أغلق الباب من ورائه. ووضع الخبز على مائدة الطعام، ثم اتجه إلى الغرفة التى جلس أبوه في صدرها وهو يقول في صوت مرتفع حتى يبلغ أمه في نفس الوقت: "السلام عليكم".

كتم العجوز خيبة أمله عندما تبين أن سيد لم يحضر معه شيئاً من الفاكهة، ومد يده فتناول منه الصحيفة قائلاً: "ما هي الأخبار؟"

مط سيد شفتيه وهو يجلس بجوار أبيه على حافة الفراش، ويمد يده ليفك رباط حذائه: "لا شئ".

ثم: "فقط بلاغ عسكري".

ودب النشاط فجأة في العجوز إلى أن أضاف سيد: "عشر دقائق من النيران المتبادلة".

قال العجوز مكافحاً خيبة أمله: "لكن الحرب ستقع".

حمل سيد حذاءه في يده ومضى يبحث حوله عن شبشب. وعندما لم يجد صاح: "ماما.. أين الشبشب؟"

ففي الثانية والأربعين كان سيد ما زال عاجزاً عن تحديد المكان الذى يترك فيه أشياءه المختلفة قبل أن يغادر المنزل في الصباح.

وردت الأم من المطبخ:

"عندك يا حبيبي.. في نفس المكان الذى تركته فيه".

وقال العجوز وهو يبسط الجريدة ويتأمل العناوين الكبيرة: "ربما كان في حجرتك."

مضى سيد حافياً إلى حجرته ووجد الشبشب بجوار الباب. أكمل خلع ملابسه أمام مرآة الدولاب الكبيرة التي أظهرت وجهه معوجاً كالعهد بها دائماً. لكن نعومة بشرته وخلو ذقنه من أثر لشعرة واحدة كان واضحاً على سطحها. ولولا قليل من الشحوب لأخطأه الرائي - وهو ما كان يحدث كثيراً - وظنه في العشرين.

جذب مصراع الدولاب ليعلق ملابسه في الشماعة. ثم تناول بيجامته التي ألقى بها على مقعد الصباح دون أن يطويها، وجعل يرتديها.

كان يستخدم هذه الحجرة في تغيير ملابسه وحسب. فهو يقضى الوقت كله في الغرفة الأخرى. وعندما مرضت الأم زمناً طويلاً شرع ينام في الفراش الثالث بمواجهتها، وهو الفراش الذي كان خاصاً باختة فادية قبل أن تتزوج. ولم تكذب تشفى حتى مرض الأب. فظل سيد ينام في فراش أخته. وفي النهاية استقر في فراشها بصفة دائمة.

أتاه صوت أمه من المطبخ بعد أن فرغ من ارتداء بيجامته:

"سيد. الصحون يا حبيبى."

تحول إلى جهاز الراديو القديم وأداره. وانتظر حتى صدر عنه صوت متقطع أشبه بسعال رجل عجوز، واطمأن معه إلى أن الراديو ليس معطلاً، فمضى إلى المطبخ.

كانت أمه منحنية فوق إناء الطعام المستقر فوق الموقد، وقد تجمعت بضع حبات من العرق فوق شاربها الواضح. تحولت إليه وسألته:

"هل أحضرت السمن؟"

أجاب: "كان الزحام شديداً على باب الجمعية ولم أستطع الدخول". وجعل يجمع الصحون من المطبخ، ثم حملها إلى غرفة أبيه.

كانوا فيما مضى يأكلون في الصالة عادة. لكنهم في الآونة الأخيرة أصبحوا يأكلون - بسبب المرض - في نفس الغرفة التي ينامون فيها، على مائدة صغيرة استقر التليفزيون فوق طرفها. ولم تعد مائدة الصالة تستخدم إلا في وجود الضيوف، الأمر الذي صار نادراً.

وبعد أن أحضر سيد الملاحه والملاعق والسكاكين، ظهرت الأم بظهرها المحنى قليلاً وجسدها المترهل المهتز. وكانت تحمل آنية كبيرة من البطاطس المطهية بالطمطم، وضعتها وسط المائدة. وذهب سيد إلى المطبخ ثم عاد بطبق امتلأ بالأرز.

تشتم الأب بأنفه وهو يفادر فراشه بصعوبة ويأخذ مكانه إلى المائدة. وبدا بالمقارنة مع صورته المعلقة على الجدار كما لو كان قد انكمش إلى النصف.

قال: "كوب ماء لدوائى يا سيد."

لم تكن به حاجة إلى السؤال لأن سيد - بحكم العادة - كان في طريقه لإحضار كوبين لا كوب واحد. فقد كان كل من الأب والأم يتناول عديداً من الأدوية قبل الأكل وبعده وفي أثنائه.

ملأت الأم طبقاً كبيراً من الأرز والبطاطس أضافت إليهما السلطة وقدمته إلى زوجها، وهى تلهث فى انفعال من أنجز عملاً تاريخياً. وقلب هو الخليط بملعته ثم أقبل عليه بشهية بالغة، وقد نسى أمر نشرة الأخبار التى كان المذيع يقرأها فى صوت رصين. وملأت الأم لنفسها طبقاً مماثلاً بعد أن ابتلعت دواءها. أما سيد فقد بدأ بالبطاطس وحدها. ولم يعد هناك من صوت غير أفواههم وهى تمضغ الطعام يقطعها لهاث الأم بين الحين والآخر.

سأل سيد: "ألم تتكلم فادية؟"

أجابت: "أبداً". ومنعها انهماكها فى الطعام من الاسترسال، فاكثفت بأن

تضيف: "ربما تكلمت بعد الظهر".

كان السؤال وإجابته يترددان يومياً في نفس الوقت منذ خمسة عشر يوماً. ففى ذلك التاريخ أنجبت فادية أول طفل لها. ولأن الأم أقسمت قبل ذلك بشهر ألا تضع قدمها فى منزل ابنتها، كما أقسم زوج الابنة بدوره أن يكسرها لها إن فعلت، فالنتيجة أن أحداً من الأب أو الأم أو سيد لم يقم بزيارة فادية عند الولادة أو فى أعقابها. الأمر الذى حدا بالزوج أن يقسم من جديد بطلاق زوجته إن ذهبت بالطفل إلى أهلها.

لكن الأم والابنة ظلتا على اتصال بالتليفون. وكثيراً ما كانت الأخيرة تضع سماعته بجوار فم الطفل لتسمع الجدة صراخه أو غمغمته، وإن كان فى معظم الحالات لا يصدر صوتاً على الإطلاق.

انتهى الأب من طبقه، فملأت له الأم طبقاً آخر أقبل عليه بنفس الشهية. وانتهزت الأم لحظة تستريح فيها من الأكل لتسأله:

”أعجبك الأكل يا بابا؟“

فمنذ زواجهما قبل أكثر من أربعين عاماً وهما يخاطبان بعضهما بـ”بابا“ و”ماما“. قال الأب خلال فمه الممتلئ: ”تسلم يدك“. وتساقت بعض حبات من الأرز على صدر بيجامته.

تحولت الأم إلى سيد الذى كان يأكل بشهية لا تقل عن شهية أبيه: ”ألم تعرف بعد متى سيجرى التحقيق معك؟“

أجاب: ”لا“. عادت تقول: ”أما كان بوسع رئيس القسم أن ينهى الأمر بنفسه دون حاجة إلى تحقيق أو خلافه؟“

هز سيد كتفه ولم يجب.

وتساءل الأب وهو يضع ملعقة كبيرة من خليط الأرز والبطاطس والسلطة فى فمه: ”أكان من الضروري أن تغيّر الكون؟“

وهو تعليق كان مفاجأة لسيد، لأنه كان بادرة بحدوث تغيير فى موقف أبيه. فحتى الآن كان يعتقد أن الأب والأم فى صفة كدأبهما دائماً. ألم يكونا هما الوحيدان بين الناس اللذان يرمقانه بنظرات الإعجاب عندما يعلن عليهما - مثلاً - ما يكتشفه من أخطاء لغوية ونحوية فى الصحف بينما لا يواجه فى المؤسسة عند ذلك بغير نظرات الملل والسخرية وخصوصاً من سليمان؟

فضلاً عن أنه لم يرغب فى تغيير الكون أو أى شئ. كل ما فى الأمر أنه أراد أن يعيد الأمور إلى نصابها الحقيقى.

والا فيما الحكمة فى أن تؤرخ مؤسسة عربية فى بلد عربى رسائلها إلى مؤسسات عربية أخرى بالأرقام بدلاً من الحروف؟

قالت الأم وهى تتطلع إليه بفخر: ”لكن الحق مع سيد.“

قال الأب الذى اهتز إيمانه بابنه فى ضوء التحقيق المنتظر: ”ماذا سنكسب من كتابة التاريخ بالحروف؟“

انحنى سيد برأسه فوق الطبق وهو يفكر فى الأمر قانطاً. أليست هناك موسيقى تستريح لها الأذن المدربة فى جملة مثل هذه: تحريراً فى الثالث من نوفمبر سنة ألف وتسعمائة وتسع وستين؟ أو... الرابع من ديسمبر عام ألف وتسعمائة وثمانية وستين. إن تسعين فى المائة من الناس اليوم لن ينتبهوا إلى الفرق بين الجملتين الذى أحدثه استبدال كلمة ”سنة“ بـ”عام“. وهل هم كثيرون الذين يستطيعون تبين أى الصيغ هى الصحيحة عند كتابة عام 1912 مثلاً بالحروف... اثنتى عشر أم اثنى عشر أم اثنى عشرة؟.

لو لم يعترض سليمان ويرفع الأمر إلى رئيس القسم لما وقعت مشكلة. فمثل أمور كثيرة تحدث كل يوم كان يمكن للتغيير الذى أجراه سيد على كتابة تاريخ الرسائل أن يمر دون أن يلحظه أحد. لكن سليمان - ذلك الذى ليس له من حديث يومى غير غزواته النسائية

- شاء أن يجعل من هذه القضية مجالاً لاستعراض مواهبه في الكلام المعسول. فماذا تفعل المؤسسة عندما تكتب إلى مؤسسات غيرها في بلدان عربية أخرى تستخدم أسماء أخرى للشهور؟ هل تحرر الرسائل باسمين للشهر وأحياناً ثلاثة؟

ولم يعدم سيد دفاعاً عن فكرته يقدمه إلى رئيس القسم، فالأرقام دائماً معرضة للخطأ ولهذا تكتب الشيكات مثلاً بالأرقام والحروف. ثم هناك الحجة الأصلية وهي أن الأرقام بصورتها المتداولة دخيلة على اللغة العربية ولا تستخدم في بعض البلدان العربية. ولو كان رئيس القسم شخصاً آخر أكثر جدية لانتهى الأمر بقبول اقتراحه ولما حدث ما حدث.

أفرغ الأب طبقه وترك الملعقة تتدحرج به. ثم تراجع إلى الوراء واضعاً يده على بطنه.

لم يكن طبق الطعام الممتلئ يستغرق منه غير دقائق معدودة لأنه لم يكن يمضغ شيئاً منذ فقد أسنانه كلها من عهد بعيد.

سألته زوجته: "هل أضع لك المزيد؟"

أجاب: "الحمد لله. شبعتم". وتناول حبتين من دواء ما بعد الأكل ابتلعهما بما تبقى في الكوب من ماء. ثم قام من مقعده واتجه إلى السرير، فاستلقى على ظهره شابكاً يديه فوق صدره.

استولى عليه الخمول وشعر برغبة قوية في النوم. وفي شبه اغفاءة تابع زوجته وابنه وهما يرفعان بقايا الطعام ويهرعان إلى فراشيها فيرقدان جاعلين رأسيهما عند قدميه. وأصبح الثلاثة مثلثاً بست عيون تتطلع في اتجاه واحد هو باب البلكونة.

وفي الماضي كانت غفوة ما بعد الغداء تستمر طويلاً يقوم بعدها نشاطاً منتعشاً. لكنها في السنوات الأخيرة أصبحت قصيرة للغاية. فما يلبث أن يفيق ويظل ممدداً يتطلع إلى

السقف دون أن يتبين تفاصيله. بينما تتراجع الشمس في الخارج في طريقها للاختفاء النهائي ويتناقص الضوء تدريجياً بالغرفة. ويهب برأسه بين الحين والآخر ويدقق النظر من خلف عيوناته السميقة إلى الفراشين الآخرين. وغالباً ما تكون الأم قد أفاقت هي الأخرى. والذي يحدث أن يبدأ أحدهما الحديث عبر الفراشين في الوقت الذي يكون الآخر قد استيقظ لتوه بالفعل.

ويبدأ هذا الحديث عادة بأن يذكرها أحدهما - وهو الأب في الغالب - أن فلاناً من الأقارب لم يزرهم منذ مدة. وهو يذكر هذه الحقيقة بصوت تقريرى لا يوحى بأى شئ في الظاهر. عندئذ يقوم الآخر - الأم عادة - بعملية حسابية سريعة لآخر مرة زارهم فيها هذا القريب.

وعندئذ يقول الأب متظاهراً بعدم المبالاة: "لعله مشغول فى شئ أو مريض. أو أحداً من عائلته. من يعلم؟"

فترد الأم على الفور بأن هذا القريب شوهد عند فلان فى الأسبوع الماضى. فدون أن تغادر المنزل كانت على بينة - بواسطة التليفون - بكل ما يحدث فى عالمها الصغير.

وتكون هذه الإجابة التى ينتظرها، فيتنهده. وهنا يتفرع الحديث فى أحد اتجاهين. إما عرض كافة المعلومات المتوفرة عن الحياة الشخصية لهذا القريب، أو تعداد الأقارب والمعارف الآخرين الذين لم يقوموا هم أيضاً بواجب الزيارة منذ مدة.

لكن الحديث اتخذ اليوم مساراً آخر بسبب ما أعلنته فادية فى التليفون أمس من أن زوجها حصل على عقد للعمل فى الكويت، وأنهما سيسافران فى أقرب وقت تسمح به صحة الطفل.

فقال الأب فى صوته التقريرى المحايد: "سأموت دون أن أرى الولد."

وردت عليه زوجته على الفور: "بعد الشر. لا تقل هذا."

ثم: "ربنا ينتقم من الذى كان السبب"، دون أن تدرك أنها بذلك لا تعرض غير نفسها للانتقام الإلهي.

فقد كان هناك جانب كبير من الصحة فيما قاله الأب بعد لحظة: "لولا غرامك بأبيه ما أعطيناها فادية."

وهو اتهام لم تعد تنكره، وإنما تجيب عليه كما أجابت الآن: "غار هو وأبوه". وهذا لا يمنع أنها كانت فى يوم من الأيام مغرمة بأبى زوج ابنتها الذى يمتهن إلهيم بصله القربى. وهو ما اكتشفه الأب فى حينه ذات ليلة فى الفراش، عندما صرخت فى لحظة من لحظات النشوة باسم القريب بدلاً من اسمه هو، كما كان المفروض.

وللمرة المائة تساءل: "ترى من يشبه؟"

وللمرة المائة أيضاً أجابت: "أدعو الله ألا يشبه أباه فى شئ".

ثم تذكرت: "هل أعد لك فنجان قهوة يا بابا؟"

تساءل بابا دون أن يحول عينيه عن السقف: "ألم يستيقظ سيد بعد؟"

فسيد هو الوحيد الذى يستفيد من إغفاءة بعد الظهر أتم الفائدة، فهو ينام نوماً عميقاً لساعة أو تزيد. وبقيامه من النوم يبدأ برنامج المساء بشرب القهوة، وهى عادة لم تنقطع منذ أخذ الليسانس والتحق بالشركة التى تحولت أخيراً إلى مؤسسة حكومية.

ويختار سيد هذه اللحظة ليتقلب فى فراشه، ويبسط ساقيه على سعتهما، ثم يفتح عينيه ويطوح بذراعيه متثائباً فى عمق. وعندئذ يردد الأب والأم فى نفس واحد: "صح النوم يا حبيبى".

فيغمغم سيد بـ"صح بدنك" موجهة إلى كليهما.

وتسأله الأم: "هل نمت جيداً؟"

فيجيب: "لا بأس".

وفى اللحظة التى انتبه فيها سيد من النوم تمثلت له على الفور غرفة رئيس القسم عندما هب واقفاً محتقن الوجه ليعلم فى صوت حاسم: "لا بد من إجراء تحقيق".

لكن رئيس القسم هو الذى كان مسؤولاً عن كل ما جرى. فما كان له أن يعلن فى استهانة أن مشكلة التاريخ بسيطة للغاية لا تحتاج لكل هذا النقاش. إذ انتفض سيد عند ذلك - ربما لأول مرة فى حياته الوظيفية - مؤكداً أن أموراً كثيرة تتوقف على هذه القضية البسيطة، وأنها على أية حال محاولة لمحاربة الجهل والتواكل. وهى إشارة اعتبرها سليمان إهانة له، فرد معرضاً بذقن سيد التى لم ينبت لها شعر حتى الآن. هكذا رفع سيد يده - لأول مرة فى حياته بالتأكيد - وصفع سليمان على وجهه.

انتزعه من غرفة رئيس القسم قول أبيه: "ما رأيكم لو يذهب سيد وحده ويأتى لنا بالطفل؟"

فمنذ زمن بعيد، وبناء على تأكيدات الأطباء، فقد كل أمل فى أن يستمر اسمه فى الأرض عن طريق سيد. ورغم أن ابن فادية لن يحمل هذا الاسم، إلا أنه بالتأكيد يحمل نصيباً كبيراً من دمائه. وها هو الآن يحرم من رؤيته وهو على عتبة الموت.

شعرت الأم عندما فكرت فى الاقتراح الجديد أنه لن يحقق لها الانتصار التام على زوج ابنتها. فقد كان فيه نوع من الإقرار بضعفهما. والأفضل أن يجدا وسيلة ترغمه على أن يأتى بالطفل صاغراً أو على الأقل يسمح لفادية بذلك.

قالت فى غير حماس: "وهل سيقبل؟ سأقول لفادية على أية حال إذا تكلمت".

وكانوا جميعاً يفكرون فى نفس الموضوع عندما قال الأب فى صوته المحايد:

"ترى.. ماذا يكون مآل الشقة؟"

كانت الشقة المشار إليها كبيرة، عبارة عن الطابق الأول من منزل قديم ذى

حديقة، لكن أثاثها كله كان جديداً.

قالت الأم: ربما أجروها مفروشة. أو تركها لأحد من اخوته.

فعلق الأب في إشفاق: "وعندما يعودون يجدون الأثاث كله تالفاً".

وكانوا يعرفون الأثاث قطعة قطعة منذ كان الأب والأم هما اللذان ابتاعاه فيما عدا

الثلاجة الأمريكية الضخمة التي أحضرها زوج الابنة يعلم الله من أين.

قالت: "ربما لن يمكث بالكويت سوى سنة واحدة، وفي هذه الحالة لا

داعى لتأجيرها".

فاندفع سيد مترجماً الفكرة التي لاحت في الأفق: "وفي هذه الحالة يمكن أن

يعطينا الثلاجة بدلاً من تركها في شقة مغلقة".

فعلى مدى السنوات الخمس عشرة الماضية، استطاع الأب من معاشه البسيط

ومرتب سيد، أن يزود مسكنه على التوالي بموقد غازي وسخان للمياه ودوش متحرك

وتليفون وأخيراً تليفزيون ما زال يسدد أقساطه.

وفي كل مرة يقررون شراء الثلاجة يقف الأب أمام الثلاجة الخشبية القديمة

ويربت على سطحها قائلاً إنها تستطيع أن تحمل عبء الصيف القادم، والأفضل أن يبتاعوا

شيئاً آخر.

وكان سيد هو الذي يشتري الثلج مرتين كل يوم في الصيف ليضعوه فوق أنابيبها.

وفي الشتاء تتحرك مهملة تمرح الصراير في جنباتها.

قال الأب: "الثلاجات في الكويت برخص التراب، ويمكنه أن يحضر معه

واحدة جديدة."

وعلق سيد: "كل شخص هناك يملك سيارة".

وتصورت الأم سيداً في سيارة حمراء فارهة أمام باب المنزل.

وكان سيد يفكر في مشط ماكينة الحلاقة الكهربائية الذي تلف منذ مدة. وهي

واحدة من ثلاث ماكينات ابتاعها من غزة في إحدى الرحلات التي كانت المؤسسة تنظمها

لوظفيتها قبل يونيو 1967. وعندما تحطم مشطها وضعها جانباً لأن قطع غيرها لم تكن

متوفرة في السوق. "أما الآلتين الأخريين فقد باعهما بضعف ثمنهما".

تنهدت الأم قائلة: "أنشرب القهوة الآن؟"

وأجاب الاثنان في صوت واحد: "أجل".

غادر سيد فراشه ومر بأصابعه على شعر رأسه. ثم ذهب إلى الحمام. وعند عودته

وجد أمه قد أحضرت كعكة وملأت ثلاثة فناجين قام سيد بتوزيعها. ثم استقر كل منهم في

فراشه من جديد.

واصل الأب الحديث قائلاً: "ربما أعجبتمهم الحال واستقروا في الكويت".

وعلى الفور أخذت القضية بعداً جديداً في أذهانهم. لكن أحداً لم يجرؤ على

ترجمة هذا البعد إلى كلمات. فقد جعل كل منهم يتصور عسارى الصيف فوق مقاعد القش في

الحديقة، والهواء يهب خفيفاً وكلما أوغل الليل ازدادت رطوبته. أو صباحيات الشتاء في

الجانب الآخر من المنزل، والشمس تسقط مترددة في البداية ثم تزداد دفناً كلما

تقدم النهار.

قال الأب بعد قليل: "لماذا لا نتصل نحن بفادية نسألها عن صحتها وعن الولد؟

إنها ابنتنا قبل كل شيء".

ردت الأم: "لا أحتمل أن أسمع صوته يرد على".

لكن صوتها رق وهي تضيف: "إن لم تتكلم في ظرف ساعة سأفعل".

انتهى سيد من فنجان قهوته وأشعل سيجارة. وسأله أبوه: "ألا تنوى الخروج

يا بابا؟"

لم تكن عادة سيد أن يخرج بعد الظهر. ومع ذلك كان الأب يوجه إليه هذا السؤال

كل يوم، ويجيب سيد أيضاً كل يوم: "كلا. سأبقى في المنزل".

ومنذ خمس عشرة سنة كانت هذه الإجابة تفعم قلب الأب بالأسى. فبينما كان غيره من الشباب في سنه يتزينون ويتعطرون ويسعون خلف البنات، ثم يتزوجون وينجبون، شرع فجأة يفقد حيويته البالغة التي كان يتميز بها وهو بعد في المدرسة ثم الجامعة، وقبع في المنزل يشرب القهوة ويدخن صامتاً، ويقرأ الروايات ويتفرج على التلفزيون.

وبمرور الزمن نسى الأب هذه المشاعر القديمة، وأصبح الآن عندما يقول لسيد: "اخرج يا ابني قليلاً بدلاً من أن تسجن نفسك هكذا"، يشعر بالرضى والسعادة عندما يرد هذا: "وأين أذهب؟ لا أحسن هناك من قعدة المنزل".

فبذلك كان ثمة ضمان لكل من الأب والأم أن يحصلوا في الوقت المناسب على الإسعاف اللازم إذا ما داهمتهم إحدى نوبات المرض التي أخذت تلاحقهما في الآونة الأخيرة. وإن كان من الغريب حقاً أن هذه النوبات لا تقع في فترة الصباح، التي يكون سيد خلالها في المؤسسة، وإنما تحدث دائماً بعد الظهر، وخصوصاً بالليل بعد أن يخلد سيد للنوم. عندئذ يصرخ أحدهما: "آه ياني". وفي ثانية يكون سيد إلى جانبه يسأله عما حدث ويناولوه الدواء، أو يهرع إلى التليفون ويتصل بالطبيب الذي يهون الأمر بصوت ملول، ويأمر بتكرار نفس الدواء المذكور في الروشقة.

ولا ينتهي دور سيد عند هذا الحد. ففي أقرب فرصة، وبتعليمات من الأب والأم، اللذين يلزمان الفراش غالباً في وقت واحد، يبدأ الاتصال بأفراد العائلة واحداً بعد الآخر ليعلن إليهم النبأ في ذلك الصوت التقريرى المعهود: "والله متعبان قليلاً". أو: "هما في الفراش من أمس". ولكي ينفي شبهة المبالغة: "يقول الطبيب...". ثم: "وماذا؟ بالأمس. بينما كانا نائمين"، ويسرد ما حدث بالتفصيل.

ثم يقبع الثلاثة فوق أسرته في انتظار رد الفعل.

كان الأب قد استدار على جانبه الأيسر بحيث واجه الصالة وقال: "شوقوا لنا ماذا في التلفزيون الليلة".

وتمنى الأب أن يحتوى البرنامج على أحد الأفلام القديمة التي دأب التلفزيون على عرضها في الآونة الأخيرة. فما أجمل عبد الوهاب الشاب عندما يزرر سترته ويحكم وضع طربوشه على رأسه مائلاً إلى اليسار ثم يمر براحة يده فوق شعره، عند حافة الطربوش اليمنى، ويشرع في الغناء. أو يوسف وهبى عندما يجمع أطراف روبه بأصابعه باسطاً قامته إلى مداها، ويزأر بصوته الفخم أن شرف البنات مثل عود الكبريت لا يشتعل غير مرة واحدة.

وعندئذ سيغادر فراشه ويجلس أمام التلفزيون مباشرة كي يتمكن من الرؤية. وتجلس زوجته إلى يمينه وسيد إلى يساره بعد أن يطفئوا النور. ويميل الثلاثة على المائدة معتمدين عليها بمرافقهم، إلى أن تنتهي السهرة. وفي الخارج كان الظلام ينتشر بسرعة. وقام سيد فأضاء النور، وعاد ينحنى فوق الجريدة متمعناً في برنامج السهرة.

وقالت الأم: "لم تتكلم فادية بعد".

واعتدل الأب على ظهره وسقطت عيناه من جديد على السقف دون أن تتبيننا تفاصيله. ثم مر بيده على بطنه قائلاً:

"نتصل بها إن لم تتكلم بعد ساعة".

ثم:

"ماذا سنتعشى الليلة؟"

أغانى المساء

عندما ظهر الرجل السمين فى النافذة أدركت أن
اليوم انتهى، وأن صوت أبى ما يلبث أن يستدعينى. وأسرعنا

نجمع الكرات الزجاجية الملونة من فوق الأرض.

استند الرجل بساعده الأيسر إلى حافة النافذة فى اطمئنان. ومد يده اليمنى بطرف
خرطوم من المظاظ الأسود. ثم اكتسح الحارة ببصره كأنما يبحث عن المكان الملائم الذى يبدأ منه.
تعلقت عيوننا بفوهة الخرطوم. وعندما انطلقت منها المياه تراجعنا إلى الوراء
حتى التصقنا بالحائط. وتابعنا المياه وهى تنهمر فوق المنطقة التى حفرنا فيها دوائر "البلى"
الخمسة. ورأينا المياه تنساب داخل الحفر مكان البلى.

وبعد لحظة بدت الحارة خالية تماماً، وهى التى كانت منذ قليل تعج بضجيج
يصم الآذان. فقد كانت المياه المتدفقة من الخرطوم تكتسح أمامها كل شئ. وشعرت بالظلام
يطبق علينا، فتطلعت إلى أعلى. كان الظلام يتضاءل كلما اتجهت ببصرى إلى أعلى. وطالعنى
وجه أبى يطل من شرفتنا ومن خلفه سماء مازالت تحتفظ ببقية من ضوء الغروب.

سمعت صوته ينادى على ككل ليلة. وشعرت بالأسى ككل ليلة. أعطيت البلى لأصدقائي، واحتفظت بوحدة في لون السماء الصافية. وسرت إلى منزلنا فصعدت درجه الضيق إلى الطابق الأخير.

وجدت باب شقتنا مفتوحاً ومصباح الصالة مضاء. واتجهت إلى المطبخ. كان صوت أختي يأتي من الشقة المجاورة لنا حيث تلعب مع أولاد أم زكية. اغتسلت بصنبور حوض المطبخ، وهو الحوض الوحيد في شقتنا. ثم هرعت إلى البلكونة.

كان الظلام قد لف كل شئ. وأضاء مصباح الصالة جانباً من البلكونة، لكن أبي كان يجلس في الجزء المعتم منها. ووقفت في مدخل البلكونة أتأمله. ولم ألبث أن شعرت بالراحة. كان وجهه هادئاً مسترخياً، ونظرته وادعة سرحانة.

جلست إلى جواره في صمت. كنت متعباً. وكان هو غارقاً في تأملاته. وبين الحين والآخر كانت عيناه تستقران على إحدى النوافذ المضيئة المواجهة لنا فيتابع ما يبدو من خلالها، وهو يجذب أنفاس سيجارته متلذذاً.

سمعت حركة خلفي في الصالة. كانت أختي قد جاءت من عند أم زكية. احتضنها أبي وحملها فوق ساقيه. لكنها أعلنت أنها تريد أن تنام. فأنزلها على الأرض ووقف. وصحبها إلى الداخل. ثم عاد بعد قليل، فتناول قلة المياه التي وضعناها على سور البلكونة لتبرد، وأزاح غطاءها، وجعل يكرع الماء في صوت وادع.

التقطت أذناي صوت الراديو في شقة أم زكية، فقممت وأنا أقول: "أنا رايح أنام. تصبح على خير يا بابا".

كان أبي قد عاد إلى مقعده فاقتربت منه وملت عليه ثم قبلت وجنته. وقال لي: "وأنت من أهله".

عبرت الصالة الصغيرة التي لم يكن بها غير مقعد هزاز تمزق قشه من زمن،

وساعة حائط كبيرة. ودخلت حجرتنا فوجدت أختي غارقة في النوم. وقد رقدت على ظهرها وتناثر شعرها الطويل حول رأسها، وثنت ساقها إلى أعلى ووضعت الثانية فوقها. ومددت يدي فأطفأت النور ثم خطوط ناحية السرير فصعدت فوقه وتمددت بجوارها. وهبت على وجهي نسائم خفيفة من النافذة الصغيرة في مواجهتي فأغمضت عيني.

كنت أحب أن أنام كل ليلة في الظلام والنافذة مفتوحة وصوت الراديو يأتيني واضحاً من شقة أم زكية، التي تجاور نافذتها نافذتنا الصغيرة.

وكانت أم زكية لا تدير الراديو إلا عندما ينام أولادها وتجلس في انتظار زوجها. كان رجلاً أسمر خجولاً، أحول العينين، لا تكاد نشعر به، ويقضى اليوم كله بالخارج. وقد سمعت أبي مرة يتعجب مما جمع بينه وبين زوجته البيضاء المتلثة.

جاءني صوت الراديو واضحاً، فأدركت أن نافذتهم مفتوحة، وأنصت في ارتياح. كانت أم كلثوم في الغالب هي التي تغني. ولم أكن أعرف ماذا تقول. ولم يحدث أبداً أن تبينت كلمات أي أغنية، كما كنت أخلط دائماً بين عبد الوهاب ومحمد أمين وفريد الأطرش، لم أكن أهتم إلا بالموسيقى.

فتحت عيني في بظه فوقعتا على النافذة. كانت السماء قريبة دانية. والنجوم تتحرك في خفة. وخفقت إحداهما في اضطراب وضعف. وسكت الراديو فجأة، ثم سمعت حركة في الشقة المجاورة فأدركت أن أبو زكية قد عاد. وبدأ وابور الجاز يطن طينياً خافتاً ثم انطفأ. وسمعت صوت ملعقة تصطدم بطبق. ثم جاء صوت المرأة متواصلًا من مكان واحد. كان صوتها هادئاً يرن واضحاً في هدأة الليل. وأغمضت عيني. كان ذلك يحدث كل مساء. وظلت أنصت للطنين الآتي من الشقة المجاورة. كنت أحب هذا الصوت أيضاً. كنت أحب أن أنام وهو في أذني.

لكني لم أنم. فقد دوت فجأة صفارة طويلة متقطعة. وفتحت عيني على سعتهما. أدركت أنها صفارة الإنذار. وأخذت أنصت لها في سرور ولذة. واستيقظت أختي فزعة،

وسمعت صوت أبى ينادى على وهو يتعثّر فى الظلام بعد أن أطفأ نور الصّالة. فقلت له: "أنا هو يا بابا". وجذبت أختى من يدها وأنا أقول: "متخافيش". ثم هبطنا من فوق السرير واتجهنا إلى الباب الذى كان يبدو واضحاً. ولمحت شيخ أبى فى الظلام فاتجهت نحوه. مد يده نحونا فاحتضننا، واستدار ناحية البلكونة. واقتربنا منها. كان الاضطراب يسود الحارة، وأنوار الشقق تطفأ على عجل. واستطعت أن أسمع فى الظلام أصوات الناس الذين كانوا يهرعون على السلام إلى المخابئ.

رفعت رأسى إلى أبى وسألته: "إحنا مش حنروح المخبأ؟"

شعرت به يبتسم، ورأيت صفاء عينيه فى الظلام. أجب: "مخبأ إيه؟ خلى اتكالك على الله". ورفع رأسه إلى السماء وهو يشير بإصبعه مؤكداً. وتابعت حركة إصبعه بعينى. كانت هناك آلاف من النجوم على مقربة. فقد كانت شقتنا فى آخر دور ولم يكن فوقنا إلا السطح.

سكنت الصفارة مرة واحدة، وساد الدنيا كلها سكون شامل. وكنت أسمع الحفيف الذى يحدثه الهواء بجلباب أبى.

سحبنا أبى من أيدينا إلى الداخل. وتحركنا فى حذر حتى تبينا طريقنا إلى الحجرة الداخلية. جلسنا على السرير. وقام أبى إلى النافذة الصغيرة فأغلقها، ثم فكر قليلاً وعاد ففتحها قائلاً: "أحسن القزاز يقع". سألته: "يقع إزاي؟" فقال: "لو وقعت قنبلة جنبنا تعمل هزة توقعه". قلت: "مين عارف... يمكن تقع علينا". فأجاب بثقة: "لا. متخفش. مش حتقع".

لم أكن خائفاً. واقتربت من النافذة، ورفعت يدي قليلاً إلى أعلى لأستند على حافتها. فلم تكن رأسى تلو على الحافة إلا قليلاً. وألقيت نظرة على نافذة أم زكية فوجدتها مظلمة. وتطلعت إلى السماء. كان كل شئ هادئاً. وهتفت فجأة: "شوف يا

بابا". كانت الكشافات قد ظهرت فى السماء. وأسرت أختى بجانبى تريد أن ترى. ورفعها أبى من إبطيها لتتمكن من الفرجة. كانت الكشافات تدور فى السماء بسرعة محمومة وهى تبحث فى اضطراب. وتوقف اثنان منها على نقطة مضيئة. وقال أبى من فوقنا: "هسى مسكت طيارة". ثم أضاف على الفور: "أخ... الطيارة هربت".

تحرك الكشافان بسرعة من جديد ثم اختفت الكشافات كلها مرة واحدة. تساءلت: أين ذهبت. ودوى فجأة صوت انفجار خافت بعيد. شعرت بيد أبى تقبض على كتفى فى عنف واهتز جلابيه بجوار رأسى وأدركت أن أختى هى التى تشده. وقال أبى: "تعالوا هنا أحسن".

جذب بطانية من فوق السرير ثم انحنى على ركبتيه. وزحف إلى أسفل السرير، وبسط البطانية على البلاط، ثم دعانا إلى أن نلحق به. وسرعان ما كنا أنا وأختى تحت السرير بجواره. وكان يجلس على ركبتيه محنياً إلى الأمام حتى لا يصطدم بسقف السرير. وكمشنا إلى جواره وهو يحتضننا بذراعيه. وكنا نضحك أنا وأختى. أما هو فلم نكن نرى وجهه فى الظلام. وسمعناه يقول: "دلوقت لو وقعت علينا قنبلة حنقع على اللي فى المخبأ. ومش حوصلنا حاجة. أما هم فحبيبقوا عجيبة".

كنت قلقاً أتلهف على رؤية ما يجرى فى السماء. وزحفت إلى حافة السرير مقرباً من النافذة. أخرجت رأسى وتطلعت إلى أعلى فرأيت جانباً من السماء. أخذت أتأمل منتظراً. كانت هناك نجوم كثيرة. وكنت أثبت عيني على كل واحدة حتى أتأكد من أنها لا تتحرك. وما لبثت أن ارتجفت من الفرح. فقد رأيت نجمة كبيرة تناسب متحركة. وأدركت أنها طائرة يهودية. ولم أشأ أن أفوه بكلمة حتى لا يحرمنى أبى من الفرجة. ومضيت أرقب الطائرة وهى تسير بببطء. وفجأة ظهرت عدة كشافات، أخذت تتلاقى وتتعانق ثم تفترق، وتصعد ثم تهبط من حول الطائرة. وخيل إلى أن الطائرة غيرت طريقها. وأغمضت عيني ثم فتحتهما لأرى جيداً. كانت الكشافات تدرع السماء. وهمس أبى: "إنت رحنت فين. تعالى هنا".

الذى يلفه حول وسطه بأذنى فألتنى. وما لبثنا أن سمعنا صوت انفجارات متتالية. كان الصوت قريباً جداً كأنه فى الشارع المجاور. وتصورت أن هناك طائرة تتقدم نحو منزلنا، وهى تسقط القنابل أثناء تقدمها. ولأول مرة توقعت أن تقع علينا قبلة بين لحظة وأخرى. جذبتنى يد أبى إلى جانبه فى قوة. والتصقت به أنا فى خوف. كان وجهى عارياً فى مواجهة الباب، فأدرته وأخفيتته فى ملابسه. ولس جلبابه فمى فقبلته. وشعرت به يرتجف، وسمعته يهتف فى قوة: "يا لطيف أَلطف".

لا أدرى كم من الوقت مر علينا ونحن هكذا. لكن سرعان ما أدركت أن الانفجارات توقفت. واسترخت قبضة أبى على كتفى حتى هدا تنفسه. ودام السكون بعض الوقت، ثم دوت صفارة حادة طويلة فانفض أبى وتنهذ بصوت مسموع. ورفع يده من فوق كتفى وانحنى على باب الكنيف ففتحه، ثم هبط إلى أرض الصالة وأسرع يضى نورها. بينما كنت أسرع خلفه وأختى تنادى على لانتظرها حتى تهبط إلى الأرض.

وفى الصالة وقف أبى تحت المصباح. وأخرج سيجارته السوداء من جيبه وأخذ يشعلها. ووقفت أمامه مباشرة وتطلعت إليه. ورأيت عينيه محتقنتين.

جذبتنى أختى من يدي. كانت تريد أن تنام. وتخاف أن تدخل الحجرة بمفردها. واتجه أبى إلى البلكونة فى صمت. أما أنا فتبععت أختى إلى حجرتنا. فأضأت النور، وانتظرت حتى صعدت فوق السرير، ثم أطفأته وصعدت خلفها وتمددت فى الظلام. تقلبت عدة مرات. وأنصت فى لهفة منتظراً أن أسمع صوت الراديو لأنام على الأغاني. لكن الراديو ظل صامتاً. ولم أسمع صوتاً واحداً من الشقة المجاورة.

سجن (المحارب)

بالوحات (الخارجة)

1963

عدت إلى جوار أبى والتصقنا ببعض وانتظرنا فى صمت. كان السكون شاملاً وسمعنا طنيناً بعيداً يزداد اقتراباً لحظة بعد أخرى. وبدا كما لو كان يأتى من الجهات الأربع. ولأول مرة شعرت بالخوف. وتوقف الطنين فجأة ثم سمعنا صوت انفجار قريب. التصقت بأبى، فجذبتنى إليه فى قوة. وشرعت أختى بالبكاء. وتوالت سلسلة من الانفجارات القوية. وفجأة زحف أبى إلى الخارج وهو يجذبنا خلفه. وتبعناه فى صمت. وتحركنا فى الظلام إلى الصالة، ثم ناحية الباب الخارجى. وخطر لى أننا سنهبط إلى المخبأ. لكن أبى لم يفتح الباب، وإنما تجاوزه إلى الكنيف وفتح بابه. كان الصنبور يرسل نقطاً صغيرة من الماء. فلم أبى جلبابه وانحنى إلى الأمام فأحكم إغلاق الصنبور، ثم أخرج علبة كبريت من جيبه، وأشعل عوداً أضاء به الكنيف.

ظهرت فتحته الدائرية يحيط بها أثران بارزان على هيئة القدم، وسط قاعدة حجرية مرتفعة. ورفع أبى يده بالعود إلى الأعلى وارتقى القاعدة الحجرية. ثم استدار إلينا واستند بظهره إلى الحائط حتى ثبت قدميه فوق القديمين البارزين بجوار فتحة الكنيف. وجذب أختى فأوقفها إلى يمينه. وعندئذ انطفأ العود فى يده فمد يده إلى وقال لى: "اطلع". وأمسكت بيده وصعدت إلى جواره، ووقفت إلى يساره. وانحنى إلى الأمام فجذب الباب نحونا وأغلقه علينا.

وقفنا فى ظلام تام. لكنى كنت أشعر بالفرق بين اللون البنى الغامق الذى دهنت به جدران الكنيف من أسفل حتى منتصفها، وبين اللون الأبيض الذى يغطى الأجزاء العليا. بل كنت قادراً على تبيين لمعان اللون البنى الذى استخدم الزيت فى طلائه. وكنت أشم رائحة الطلاء الزيتى النافذة. فقد كانت الشقة جديدة ولم يكن لنا فيها أكثر من شهر.

لم أكن أسمع شيئاً مطلقاً. وبعد لحظة تبينت صوت تنفس أبى وكان قوياً. وكانت رأسى مستندة إلى جانبه، فشعرت بصدرة يتحرك. واحتكت قطعة من المعدن فى حزام الفتق

أبيض وأزرق

رفع المرشد اليونانى الميكرفون الصغير إلى فمه وقال بالإنجليزية فى صوت هادئ: "مرحباً بكم فى جزيرتنا". كان يرتدى ملابس رياضية بادية الجدة: كاب وقميص قصير الأكمام وشورت وجورب فى حذاء من المطاط.

وكانت جل ملابسه بيضاء اللون.

قال: "أنتم جميعاً مصريون وتتكلمون اللغة العربية. تماماً؟ للأسف أنا لا أعرف العربية، وسأضطر إلى مخاطبتكم بالإنجليزية. أنتم تعرفون الإنجليزية أليس كذلك؟" تصاعدت صيحات الموافقة من جنبات الأتوبيس السياحى. ومضى المرشد قائلاً وهو يشير إلى السائق: "السائق اسمه ميخالى. مثلى تماماً. وهو كما ترون غاضب بسبب اضطرارنا للانتظار حتى يكتمل عددكم. باقى اثنان الآن. وقد فهمت أنهما عروسان. ولهذا يجب أن نتسامح معهما. ها هما". ظهر الزوجان الشابان فى مدخل السيارة. وشقا طريقها فى الفرجة الضيقة التى تفضل بين صفى المقاعد. ثم جلسا على المقعد المقابل لذلك الذى شغلته أنا وزوجتى.

كانت الفتاة سمراء ضئيلة الحجم، قصت شعرها كالصبية، وارتدت بدلة صيفية من قماش قطنى أصفر اللون، وحذاء ذا كعب مرتفع من نفس اللون. وامتلأت أصابع يديها بالخواتم الذهبية، كما تدلى الذهب من أذنيها وأحاط بكل من عنقها ومعصمها. وكان

عريسها فى نفس حجمها وسنها، تتدلى من سوار حول معصمه كاميرا صغيرة الحجم. رأتنا نتطلع إليها فخطبت زوجتى شاكية من غباء موظف الفندق وجهلهم باللغة الإنجليزية، إذ لم يفهموا إلا بصعوبة أنها تريد الحلى التى أودعتها خزانة الفندق بالأمس.

استدار المرشد بحيث أصبح يواجه الطريق، واستقر فى مقعد بجوار السائق، وما زال الميكرفون قريباً من فمه.

وانسابت السيارة فى شوارع هادئة تحف بها أشجار متقاربة على الجانبين، وتطل عليها منازل واطنة من طابقتين أو ثلاثة. وكانت أغلب المنازل مكسوة بطلاء أبيض اللون.

قال المرشد: "نحن الآن فى الجزء الحديث من المدينة. أما المدينة القديمة فعمرها خمسة آلاف سنة. ولهذا توجد بها آثار لكل أنواع الغزاة وبناءة الإمبراطوريات، بدءاً من قبائل أوروبا والفينيقيين إلى اليونان والفرس والرومان. ثم القوط والعرب والأتراك. وأخيراً الإيطاليين والألمان والإنجليز".

لم أر كثيراً من المارة. كان أغلبهم من الشباب الأوربى الذى ارتدى الملابس الرياضية أو اكتفى بأردية السباحة.

توقفت سيارتنا خلف سيارة لجمع القمامة سدت الطريق. وتابعت ببصرى عاملاً يجر صندوقاً للقمامة بيد مقفزة، ويثبته فى مؤخرة السيارة لتتولى تفريغه آلياً. ثم أعاد الصندوق إلى مكانه بجوار الرصيف وجذب غيره.

تطلعت إلى الرصيف المقابل، فلمحت رجلاً متقدماً فى السن يبرز من باب ممسكاً بعصا طويلة تنتهى بفرشاة، طاوياً صحيفة أسفل إبطه. ومضى الرجل ينظف الإفريز أمام المنزل بعناية، ثم جمع الأتربة فى كوم صغير. وعاد إلى المنزل فأحضر جاروفاً استعان به فى نقل الأتربة إلى كيس أسود من البلاستيك. ثم وضع الكيس بعناية على حافة الرصيف واستدار داخل المنزل، فارتقى بضع درجات إلى شرفة صغيرة مكشوفة. واستقر فى مقعد من

الخيزران أمام مائدة تحمل فنائاً من القهوة وجليوناً. وبعد أن ارتشف من الفئجان، بسط صحيفته وانهمك فى إشعال الغليون.

تحركت سيارة القمامة أخيراً. وتبينت رتلا طويلاً من السيارات تكوّن خلفنا دون أن يصدر عن إحداها صوت ما. وتطلعت إلى حيث استقرت صناديق القمامة الفارغة فرأيت الأرض حولها نظيفة بلا أثر لما كانت تحويه من فضلات.

انحنى الأوتوبيس فى شارع خلا من المارة، امتدت على أحد جانبيه حديقة كبيرة كثيفة الخضرة، انتشرت فى أنحائها الورود البنفسجية الصغيرة التى كانت تملأ حدائقنا فى الصبا. همست زوجتى: "وأنا طفلة كنت ألقى بتلات هذه الوردة على شفتى".

أحاط بنا هدوء عذب. ومضت السيارة على مهل. ولمحت شاباً وفتاة يتبادلان قبلة طويلة أسفل إحدى الأشجار. ولزم المرشد الصمت كأنما يتيح لنا أن نستمتع بالهدوء.

لكن الجالسين خلفى اختاروا هذه اللحظة بالذات ليفيضوا من سعادتهم بإنجازاتهم على الجميع. ودون أن أحرك رأسى عرفت أن خلفى مباشرة توأمتين فى ربيع العمر، تعيشان فى أبى ظبى مع أبيهما المهندس وأمهما المدرسة. وأن السلاسل والصلبان الذهبية التى تتدلى من عنقيهما هى هدايا أعياد الميلاد. وأنهما تتوقان لاستعراض مواهبهم فى رقصة البطن داخل السيارة.

أشرف الأتوبيس على أسوار حجرية قديمة تتخللها أبراج عالية. وعلق المرشد قائلاً: "أمامكم الآن التحصينات التى أقامها الفرسان الصليبيون فى القرن الخامس عشر عندما استقروا هنا بعد طردهم من الشام. وتعين هذه التحصينات حدود المدينة القديمة. لكننا لن نذهب إليها الآن. إنما سنتجه إلى قلب المدينة الحديثة حيث البنك. فلا بد أن بعضكم يود استبدال نقوده".

تصاعدت صيحات الاستحسان والاستفسار عن سعر الدولار، بينما انتقل الأوتوبيس إلى منطقة أهلة بالمارة والمقاهى والمطاعم الأنيقة.

ومع ذلك كانت الشوارع نظيفة للغاية، بلا حفر ولا أتربة. كما خلت الأرصفة من شتى المخلفات والإفرازات. وامتدت أفاريزها الحجرية فى استقامة، وقد التصقت أجزاؤها بعضها ببعض، التصاقاً محكماً لم يترك بينها أية فراغات. وأحاطت بقواعد الأشجار دوائر من التربة، مؤطرة فى عناية بأفاريز رفيعة من الرخام.

تناقست المقاهى والمطاعم بالترديج لتحل محلها البوتيكات وحوانيت الملابس والمجوهرات والأنتيكات. وتوقف الأوتوبيس فى ميدان صغير على بعد خطوات من البنك. وقال المرشد: "أحب أن أنبهكم إلى شئ هام بالنسبة إلى الشراء. فالجزيرة كلها عبارة عن منطقة حرة. ولهذا فالمنتجات الأجنبية هنا أرخص منها فى بلادها الأصلية، بل وأرخص من المنتجات اليونانية المحلية".

شرع الركاب فى مغادرة السيارة، فاكتشفت بينهم عدداً من المحجبات، وسيدتين متلازمتين فى أواخر العقد الرابع، عريتا أكتافهما، فى محاولة متعجلة للحصول على شهادة التصييف.

توزعنا بين البنك وواجهات الحوانيت. وكنت أنا وزوجتى قد استبدلنا نقودنا فى الفندق عند وصولنا. فانتحيا جانباً مظلاً ووقفنا نتأمل المارة. ولاحظت أن غالبية السائحين من الشباب، وأن نسبة كبيرة منهم من بلاد الشمال القصى، ومن الفتيات.

تبينت عدداً من الوجوه العربية. وسمعت اللهجة السعودية من زوجين ظننتهما إفريقيين بسبب لون بشرتهما. وكان الزوج البدين يحمل أكبر زجاجة ويسكى رأيتها فى حياتى، وقد حملها فوق ساعديه كالطفل الرضيع.

اقتربت العروس الصفراء منا ومدت يدها بالكاميرا الصغيرة إلى زوجتى، ملتزمة منها أن تصورها هى وعريسها. وأسرعت تقف إلى جواره فوق درجات البنك وقد أحاطها بذراعيه وأمسك معصمها بيديه.

لمحت حانوتاً لبيع الصحف، ففكرت زوجتى تصور العريسين، ومضيت إليه.

ابتعت صحيفة يونانية باللغة الإنجليزية. وألفيت أخبار بيروت تحتل صدر الصفحة الأولى. ووصف العنوان الرئيسى أمس بأنه أطول يوم فى الحرب التى تجاوزت الشهرين، إذ استمرت الغارات الإسرائيلية المكثفة من الصباح حتى المساء دون انقطاع.

قرأت التفاصيل، وتأملت الصورة المنشورة إلى جوارها، وتمثل طفلاً عربياً لم يكمل العام الأول، بتر الإسرائيليون يديه.

ألهمت أشعة الشمس رأسى، فطويت الصحيفة، واتجهت إلى السيارة. كان الجميع قد عادوا إليها، فصعدت خلف زوجتى.

التقت نظراتى وأنا أتجه إلى مقعدى بنظرات أحد الركاب، فوجهت إليه التحية مرغماً. وعندما أصبحت بجواره خاطبني ضاحكاً: "هل عثرت على سر شويبس؟" أجبته باقتضاب: "لا".

كان يشير إلى تساؤلاتى عن الطائرة المصرية التى أقلتنا من مطار القاهرة عندما رأيت أنها تحمل اسماً غير اسم "مصر للطيران" وأن بها مضيفات أجنبيات، وأنها تقوم برحلات إلى تل أبيب.

جاء مكاننا أنا وزوجتى هذه المرة خلف العروسين الشابين. وكانا يجلسان متلاصقين وقد أودعت يديها بين كفيه. واشتبكا فى حديث مع أم التوأمين تبينت منه أن العريس يعمل، هو الآخر، فى مكتب مقاولات بأبى ظبى منذ سنتين. وأن العروس تخرجت هذا العام من كلية التجارة.

وقبل شهرين تلفن لها من أبى ظبى ليسألها أن تتزوجه. ومنذ تلك اللحظة لم تعرف طعم النوم. فقد أصرت على أن تعد كل شئ بنفسها: الملابس والستائر والجاتوهات. وفى حفل الزواج أقيم بالهيلتون كادت تسقط من الإعياء. وقد أقاما بعده فى الهيلتون ثلاثة أيام، ثم جاء إلى الجزيرة مباشرة. ولهذا فما زالت فى أشد الحاجة إلى النوم.

تحرك الأتوبيس، بينما تشعب الحديث وانضم إليه شاب يدخن الغليون ويعمل في الكويت، بدت زوجته حاملاً فى شهرها الثالث أو الرابع. وعرفت أن "الشو" الذى يقدمه الميريديان أفضل لأن "الباند" أكثر مهارة وتنوعاً.

أشار المرشد إلى بار يشبه بارات وسط القاهرة وقال: "هذه هى التافيرنا التى يجتمع بها اليونان عادة ليشربوا النبيذ والأوزو، ويأكلوا اللحم والأسماك المشوية، ويرقصوا ويغنوا... ويتشاجروا. وبالمناسبة: اليونانى شخص حساس جداً لكرامته. ويثور لأقل مساس بها. وربما كان السبب أنه ظل رافع الرأس طوال قرون طويلة من السيطرة الأجنبية".

كان ثمة رجلان بدينان يحتلان المقعد المقابل لمقعدى. وكانا يتحدثان بصوت مرتفع للغاية ينطق بثقة كبيرة فى النفس، ورضاء تام عن الإنجازات. وحكى أحدهما وهو يردد بين كل عبارة وأخرى "شوف سعادتك"، كيف صنع ثروته فى بورسعيد بعد أن صارت مدينة حرة. واتضح أن المدينة المعروفة هى موطن الثانى، وهو أستاذ فى الجامعة ذو عوينات سوداء وشفتاه ممتلئة، يعمل فى السعودية. وكان يدعو زميله "محمد بك". ومن معصم كل

٥٩٩٢٠٤

منهما تدلت الكاميرا الصغيرة المعهودة. أسميت محمد بك بينى وبين نفسى "محمد كرشة". وسمعتة يقول إنه جاء بدون أسرته كى يفوز بعطلة حقيقية. وتبينت أن أسرة الأستاذ البورسعيدى تجلس خلفه مباشرة، وهى مكونة من سيدة محجبة تضع عوينات شمسية، وتغطى الملابس رأسها وساعديها حتى المعصمين، وبقية جسدها حتى أصابع القدمين. وإلى جوارها فتاة فى سن المراهقة موشكة على البكاء، وطفلان غيرها.

أشرفت السيارة على أحد أسوار المدينة القديمة، فقال المرشد: "لقد صدت هذه الأسوار غزوات أجنبية كثيرة. أقدامها وقع قبل الميلاد بثلاثة قرون عندما هاجمها أحد خلفاء الاسكندر لأكبر بجيش من أربعين ألفاً يساندهم أسطول قوى وآلات حصار مبتكرة. وصد ستة آلاف من

المدافعين داخل المدينة لهذه القوة الماحقة سنة كاملة، حتى اضطر المهاجمون للانسحاب." قام محمد كرشة فجأة من مكانه وعرض عليه من سجاثر الدانهيل على الجالسين. وتوقف عند السيدتين عاريتى الأكتاف، وكانتا تجلسان خلفى. وسمعت إحداهن تقول أنها لا تدخن. بينما قالت الثانية إنها انتهت للتو من سيجارتها ولا تريد واحدة جديدة. ألح عليها أن تأخذ السيجارة ملتصقاً منها ألا تكسفه. واعتذرت مرة أخرى، فأصر قائلاً: "انت بتهينينى كده يا مدام". واضطرت فى النهاية أن تأخذ السيجارة، فأشعلها لها ثم عاد راضياً إلى مقعده.

وسمعت رفيقته تهمس لها: "أيوه يا عم. ماشية معاك حلاوة". تهمل الأتوبيس أمام بوابة قديمة فى السور فقال المرشد: "هذه البوابة تدعى بوابة الحرية. وهى تؤدى إلى أقدم حى فى المدينة بحى الفرسان". اخترقت السيارة البوابة ومضت فى أزقة ضيقة تظللها الأشجار، ثم توقفت فى ساحة صغيرة تفرعت منها ممرات مهجورة.

علق المرشد قائلاً: "فى أعقاب انسحاب الصليبيين من الشام استقر ستمائة فارس من أعرق العائلات الأوروبية فى هذا الحى. وتعاهدوا فيما بينهم على حياة قوامها الزهد والعفة. ولم يكونوا يغادرون هذا الحى إلى بقية المدينة إلا فى جماعات، وفوق ظهور الجياد." وفى سنة 1522 هاجمهم الأتراك بمائتى سفينة ومائة وخمسين ألف جندى. ولم يكن مع الفرسان غير خمسة آلاف من السكان المحليين، وفرض الأتراك عليهم حصاراً استمر أربعة شهور ونصف، فقد الغزاة خلالها خمسين ألفاً من رجالهم، رغم أن الفرسان لم يتلقوا أية مساعدة من الخارج. فقد تخلى العالم المسيحى عنهم.

"وتمكن الأتراك أخيراً، بفضل أحد الخونة، من إحداث ثغرة فى دفاع الفرسان. واضطر هؤلاء إلى طلب الهدنة. واتفق الطرفان على أن يغادر مائة وثمانون فارساً - هم كل ما

تبقى من الفرسان - الجزيرة إلى مالطة بطريقة مشرفة. ومنذ ذلك الحين عرفوا بفرسان مالطة".

زمجر محمد كرشة قائلاً: "إحنا جينا نتفسح ولا نسمع محاضرات؟"

واصل الأتوبيس سيره بين الشوارع القديمة الضيقة حتى بلغ ساحة صغيرة احتشدت فيها الأتوبيسات السياحية الصغيرة.

غادر الجميع السيارة فتبعتمهم أنا وزوجتي بعد أن بسطت الجريدة فوق مقعدنا. وعبرنا بوابة صغيرة إلى أزقة ضيقة رصفت بالحصى الكبير وتصاعدت من جنباتها رائحة القهوة المنعشة مختلطة بنغمات خفيفة من الموسيقى اليونانية.

تفرقت جماعتنا في عدة اتجاهات. فالتف البعض حول باعة المرطبات والقطائر الذين وقفوا في حوانيت الملابس والحلى والخزف. وكانت العروض مرتبة في عناية ونظام ونظافة.

لم نشعر أنا وزوجتي برغبة في الأكل، فمشينا نتفرج على السائحين، ونتأمل العروض، ونقلب بينها طويلاً دون أن يلاحظنا أحد أو ينهرنا أو يهيننا عندما يكتشف أننا لا ننوي شراء شئ. وتمهلت زوجتي أمام حانوت لبيع الحلوى الذهبية، فتجاوزتها إلى ميدان صغير احتل جانباً منه في مقهى تظله الأشجار، واحتلت جماعات من السائحين الأوروبيين مقاعده، يجرعون البيرة من أكوابها الزجاجية التقليدية.

تنبهت فجأة إلى الهدوء الذي يسود المكان رغم زحام المارة وعمليات البيع والشراء ولحقت بي زوجتي فانحنينا جانباً، ووقفنا نستمتع بالهدوء، وعندما تعبنا من الوقوف قعدنا الرصيف الذي كان نظيفاً للغاية.

قمنا بعد قليل وانطلقنا عائدين، ومررنا بمطعم رصت موائده في الهواء الطلق. ووقف أمامه صبي يلوح بقائمة الطعام، أشار لنا أن ندخل فخاطبته بالإنجليزية قائلاً: "شكراً. ليس الآن. في مرة قادمة".

سألني بالإنجليزية: "من أي بلد أنتم؟ إسرائيل؟"

أجبت "لا. مصر"

قال بعربية مكسرة وبلهجة مستنكرة: "إذن لماذا لا تتكلم بالعربية؟"

تطلعت إليه لحظة ثم واصلت طريقى أنا وزوجتى فى صمت.

استأنف الأتوبيس جولته فى شوارع المدينة وبين الحين والآخر كان البحر

يتراءى لنا من خلال شوارع جانبية تؤدى إلى ميناء ازدحم بالقوارب والسفن.

توقفنا فى ميدان صغير تتوسطه بحرية نافورة على شكل طبله تكسوها مربعات

من الخزف الأزرق المزوق برسوم. وفوق النافورة ارتفعت ثلاث رؤوس برونزية ضخمة

للسمكة المعروفة بحصان البحر، وقد تلاقت قممها على شكل هرمى.

قال المرشد: "نحن فى ميدان الشهداء اليهود. وتعود هذه التسمية إلى عام 1943

عندما احتلت القوات النازية الجزيرة. فقد جمعوا هنا يهود الجزيرة كلهم، وكان عددهم

يربوا على ألفى شخص، ثم قاموا بترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال المختلفة فى أوربا".

مررنا بمبنى قديم أشبه بالثكنة العسكرية، فقال المرشد إنه مسرح الفنون

الشعبية. وانتصب واقفاً، واستدار يواجهنا وهو يضيف فى حماس: "هذا المسرح خصص

دخل إحدى حفلات الأسبوع الماضى لضحايا الغزو الإسرائيلى للبنان".

لم يعلق أحد بشئ، فاستعاد المرشد هدوءه وأعطانا ظهره من جديد وغاص فى

مقعده، انتقل الأتوبيس إلى شوارع غصت بالمقاهى والمطاعم والفنادق الحديثة. وانتشرت بها

رائحة الياسمين. ثم خرجنا فجأة إلى شاطئ البحر.

استنشقت الهواء المحمل برائحة الأسماك فى لهفة. وبدت حافة الماء نظيفة من أى

مخلفات. وبالمثل كانت رمال الشاطئ التى اصطفت فوقها مظلات المصيفين الملونة فى نظام بديع.

ثم صافحت عيني زرقه كثيفة لم أر مثلها من قبل. وكانت تزداد كثافة كلما

قاربت الأفق.

توقف الأتوبيس إلى جوار رصيف الكورنيش. وشعرت بهرج مفاجئ بين الركاب.

وعندئذ تبينت أن بعض المستلقيات على الشاطئ قد عرين صدورهن.

حدقت سيدة محجبة فى استنكار، ووضعت عارية الكتفين التى لا تدخن، اصبعها فى شفتها متاملة المشهد فى ابتسامة خجلى وحاسدة فى الوقت نفسه. وتشبثت لعروس بيد عريسها فى شدة كأنما تخشى أن يقفز هارباً.

ورفع محمد كرشة والأستاذ البورسعيدى ومهندس أبى ظبى كاميراتهم الصغيرة، وأقبلوا يلتقطون الصور فى حماس.

مدت زوجة الأستاذ البورسعيدى المحجبة يدها فجذبت الكاميرا بمنف من يد وجها وهى تهتف: "احمد ربك على النعمة اللى عندك".

عقب المرشد ضاحكاً: "إن كل شئ فى بلادنا فى الهواء الطلق كما لاحظتم".

واصل الأتوبيس سيره على طريق الكورنيش. وكانت هناك أجزاء صخرية تخلو من المصطافين. وأوشك رصيف الكورنيش أن يخلو من المارة. أما الجانب الآخر من الطريق فقد خلا من أى حوانيت أو مقاه. كان يتألف فى أغلبه من منازل قديمة مسورة بجدران بيضاء، أو مطاعم متباعدة ترتفع عن مستوى الطريق بعدة درجات.

كانت جدران المنازل نظيفة لا تحمل أية كتابة أو إعلانات. وفوق أحدها طبع شعار المنجم والمطرقة المتعانقين بحجم صغير، وبصورة أنيقة.

أشار المرشد إلى شجرة أطلت من حديقة أحد المنازل وقال فى انفعال: "هذه شجرة يهوذا، والزهرة القرمزية التى ترونها يندر أن يراها أحد فى هذا الوقت من العام. فهى لمهر فى الربيع قبل الأوراق. وتقول الأسطورة إن هذه الزهرة كانت فى الماضى البعيد احبة اللون. لكن إحساسها بالعار من جريمة يهوذا جعلها تكتسب هذه الحمرة القانية".

أضاف المرشد بعد قليل: "لقد أوشكت جولتنا على الانتهاء. وستعودون إلى فندقكم بعد غظات. وأظن أنكم تحتاجون إلى فكرة سريعة عن الأطباق الشهية.. أبرز هذه الأطباق "الضلمة".

وهى عبارة عن ورق عنب محشو باللحم المفروم المخلوط بالأرز والتبل بالنيبيذ والبصل والخضرة. وهناك "الكفتة"، وهى كرات من اللحم المفروم المعجون بالبصل المبشور والثرفة والنعناع والنيبيذ.

ثم "المسكعة" وهى من أفضل الأكلات الشعبية هنا. وتتألف من شرائح الباذنجان واللحم المفروم، تتخللها طبقات من صلصة الباشاميل والجبن المبشور. أما عشاق الأكلات البحرية فإمامهم سمك البربونى المقلى والاستاكوز التى تقدم بالزيت والليمون، والأخطبوط الذى يقطع إلى شرائح ويقلى أو يسلق. ثم الكالامارى والجنبرى والسرطان".

اعترضتنا إشارة المرور الحمراء وانتظر السائق فى صبر وهدوء رغم أن الطريق الاعتراضى كان خاليا ولم تمر به سيارة واحدة. ولم نمض كثيراً بعد ذلك، فسرعان ما بلغنا الفندق. وأسرع الجميع بمغادرة السيارة وحملت الصحيفة فى يدي وتبعتمهم مع زوجى.

عبرنا ممراً مسقوفاً بين صفين من النباتات الشائكة. ومن خصائص هذه النباتات بدا لى جانب من حوض السباحة التابع للفندق، وقد استقلت حوله عدة فتيات أوروبيات، عرضن أجسادهن العارية للشمس، وفوق عارضة الحوض استعدت شقراء فارعة، عارية الصدر، للقفز، وقد ثنت ساقبها القويين، وبرز ثدياها المتلئنان إلى الأمام.

ولجنا ردهة الفندق واتجهنا على الفور إلى المطعم. واجتزنا قاعة واسعة تناثرت المقاعد الوثيرة فى جنباتها، واستقر البار فى أحد أطرافها. وبالقرب منه عدة ألعاب تليفزيونية.

توقفنا أنا وزوجتى أمام إحدى هذه الألعاب. وعندما لحقنا بجماعتنا وجدنا أفرادها قد تجمهروا أمام المطعم. وكان بابهم مغلقاً، وقد اصطف أمامه عمال كل من المطعم والمطبخ فى ستراتهم الرسمية، وحملت مائدة مجاورة كمية من ساندويتشات الجبن واللحوم الباردة.

كان احد العمال مشتبكاً فى نقاش حاد مع عريس العروس الصفراء، بلغة إنجليزية متبادلة الركاقة. وسمعتة يقول: "قلت لك إننا مضربون. ألا تعرف ماذا يعنى الإضراب؟ ألا يضرب أحد فى بلادكم؟ ومع ذلك أعددنا لكم بعض الساندويتشات، ومن لا

يعجبه يمكنه أن يأكل في أحد المطاعم القريبة".

سأله البورسعيدى: "ونقودنا التي دفعناها؟"

أشار العامل إلى مكاتب الفندق قائلاً: "طالبوا بها الإدارة".

زمر محمد كرشة قائلاً: "المفروض إحنا جينا نصرف فلوسنا. إزاي يعاملونا بالشكل ده".

تدخل عامل متقدم في السن موضحاً: "نحن لم نقصد الإساءة إليكم. إنما نحن نسعى للحصول على حقوقنا. فهذا الفندق يجنى أرباحاً طائلة في فترة الصيف. ثم يغلق أبوابه في أشهر الشتاء الخمسة. ويسافر أصحابه إلى الخارج حاملين أرباحه بينما نبقى نحن في بيوتنا بلا عمل. أليس من حقنا أن نتقاضى أجراً عن هذه الفترة أيضاً؟".

ترزم الأستاذ البورسعيدى الدعوة إلى ملاحقة إدارة الفندق. بينما انطلق الآخرون إلى الخارج وعلى رأسهم محمد كرشة. وكنت أنا ممن أقبلوا على الساندويتشات. فأخذت واحداً لي وآخر لزوجتي مع كوبين من عصير البرتقال. وانتحينا ركنا في القاعة الخارجية وجلسنا نلتهم طعامنا.

٥٩٩٢٠٤

لمحت الشقراء السامقة تلج القاعة من الباب المطل على حوض السباحة وتتجه إلى المصعد. وكانت قد غطت صدرها وارتدت شورتاً أسود اللون. وبدا جسدها الكبير عن قرب متناسق التفاصيل، يشع بجاذبية حيوانية. وقدردت أنها تنتمي إلى الشمال الأوروبي والعنصر الجرمانى على الأغلب، إلى أن سمعتها تخاطب زميلة لها بلهجة أمريكية واضحة.

فرغنا من الأكل وأشعلنا سجائرنا. وانهمكت زوجتي فى قراءة الصحيفة اليونانية، بينما قمت أفرج على الألعاب التليفزيونية. وكانت شاشة إحداها تمثل طائرة تلقى قذائفها على أهداف متغيرة. كان اللاعب يبذل جهداً بالغاً فى التركيز، مستعيناً بيديه الاثنتين: واحدة تضغط زراً يسقط القذائف، والثانية تحرك مقبضاً يبعد الطائرة عن

مجال الصواريخ المضادة لها.

لكنه فشل فى تسجيل أية نقاط بسبب بطئه فى متابعة الضغط على الزر وتحريك المقبض فى الوقت نفسه، فغادر مكانه آسباً. وفوجئت بالشقراء الأمريكية تحتل مكانه، وقد استبدلت ملابس السباحة بقميص وبنطلون أسودين التصقا بجسمها الفارع.

وضعت عملة معدنية فى ثقب بالجهاز، ثم جعلت تحرك يديها فوق الزر والمقبض بسرعة فائقة. وتساقطت القنابل بدقة بالغة على أكواخ متفرقة تشبه أكواخ الهنود الحمر والزنج الأفرقيين، وعلى جمال يمتطيها بدو فى صحارى شاسعة، ومنازل شاهقة تحيط بها الحدائق.

نادتني زوجتي، فتبعتها إلى المصعد. ولاحظت أن بقعة من الدماء تلوث ملابسها من الخلف فنبهتها إلى ذلك. ناولتني الصحيفة ومدت يدها خلفها فجمعت الفستان فى قبضتها لتخفى البقعة. وعندما بلغنا حجرتنا، هرعت إلى الحمام.

ألقيت بالصحيفة فوق مقعد. وعندئذ اكتشفت أن الغرفة ما زالت كما تركناها فى الصباح. ورأيت لافتة من الورق المقوى على مائدة الزينة وكانت تحمل بحروف كبيرة هذه العبارة: "نحن مزيون". وأسفلها التوقيع: "عمال النظافة".

أشعلت سيجارة وخرجت إلى الشرفة. وجلست أتأمل البحر الذى هبت منه نسمة باردة، بينما أشعة الشمس القوية تلتهم فوق الأجساد المشوقة التى استلقت على شاطئه. ومن أعماق المدينة الصغيرة جاءتني نغمة البوزوكى اليونانى تحمل آثار النواح العربى، الذى تسلل إليها ولا شك عبر أربعة قرون من القهر التركى.

انتهت سيجارتي، فولجت الحجرة لأطفئها فى المنفضة. وكانت زوجتي قد غادرت الحمام واستلقت على الفراش. فاستلقت إلى جوارها، ووضعت رأسى على كتفها.

وبعد لحظة أحطتها بذراعى فقالت فى رقة: "لقد نرفت اليوم بشدة".

قلت: "وأنا أيضاً".

المحتويات

- مقدمة الطبعة الثالثة 5
- على سبيل التقديم 11
- ليست مجرد قصة 25
- تلك الراححة 29
- الشعبان 67
- أرسين لوبين 77
- بعد الظهر عبر ثلاثة أسرة 83
- أغاني المساء 99
- أبيض وأزرق 107